سلسلة
الخيال
العلمي
١٦

مثلث الأسرار

د. طالب عمران



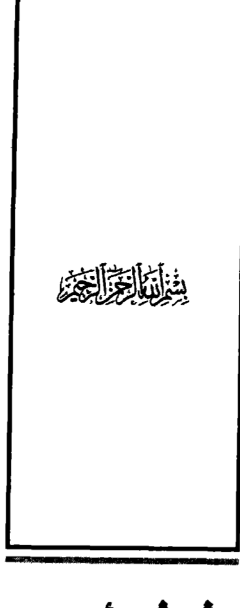
طالب عمران

من مواليد دمشق ١٩٤٨

- دكتوراه في المنطويات التفاضلية والفلك
- أستاذ في كلية الهندسة المدنية، جامعة دمشق
- **عضو في كل من:**
- جمعية تاريخ العلوم عند العرب
- مركز الدراسات الفلكية (جامعة دمشق)
- اتحاد الكتاب العرب
- اتحاد الصحفيين

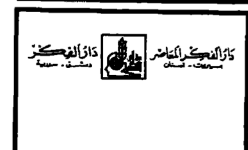
من أعماله:

- الأزمان المظلمة
- العالم من حولنا
- كوكب الأحلام
- العابرون خلف الشمس
- صوت من القاع
- نافذة على كوكب الحياة
- سلسلة روايات من الخيال العلمي ١-١٢



مثلث الأسرار

(رحلة إلى قلب مثلث برمودا)

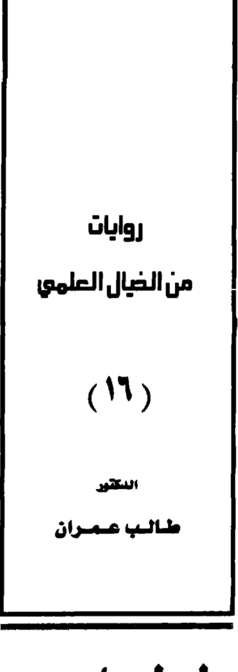


مثلث الأسرار: رحلة إلى قلب مثلث برمودا/ طالب عمران.- دمشق: دار الفكر؛ ٢٠٠٤.- ٢٠٠ص؛ ٢٠سم.- (روايات من الخيال العلمي؛ ١٦)

١-٨١٣,٠٨٨ ع م ر م ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ع م ر م

٣-العنوان ٤-عمران ٥- السلسلة

مكتبة الأسد



مثلث الأسرار

(رحلة إلى قلب مثلث برمودا)



الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ١٦,٣٠٤٢
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ١٧١٦,٠٣١
لرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-412-3
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-59239-196-6
الرقم الموضوعي: ٨٥٠
الموضوع: القصة والرواية
السلسلة: روايات الخيال العلمي
العنوان: مثلث الأسرار
التأليف: د. طالب عمران
الصف التصويري: دار الفكر – دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية – دمشق
عدد الصفحات: ٢٠٠ صفحة
قياس الصفحة: ١٤ × ٢٠سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق–سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ – ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com

Frankfurter Buchmesse 2004
Guest of Honour 2004 : Arab World
العالم العربي ضيف الشرف ٢٠٠٤
نظرة إلى المستقبل

الطبعة الأولى

المحرم ١٤٢٥هـ

شباط (فبراير) ٢٠٠٤م

المحتوى

القسم الأول

أسرار بحر سار غاس

- ١ -

كانا رفيقين في الدراسة، وكبرا وشبا وازدادت علاقتهما وداً والتصاقاً بعد أن سلكا الهدف نفسه، في دراسة (الملاحة البحرية) في إحدى الكليات البحرية في إيطالية.. وقد سافرا معاً من جزيرتهما الصغيرة التي تقع قبالة أحد أكبر المرافئ على الساحل الشرقي للبحر المتوسط..

كان عبد المنعم، وسعد متعلقين بالبحر، ورغبا في الدراسة البحرية وشجعهما والد عبد المنعم الذي كان بحاراً متمرساً بعد أن أقنع جاره (أبا سعد) الذي يعمل صانعاً للقوارب، بضرورة سفر سعد مع ولده لمتابعة الدراسة البحرية..

كان البحر يشكل عشقاً أبدياً للشابين ، وقد نشأا على شاطئه، وصارعا أمواجه، وخبرا حالاته.. وبالفعل نجح

الشابان في دراستهما في إيطالية وأوشكا أن يتخرجا برتبة قبطان متمرن، ولم يكن أمامهما سوى ستة أشهر للانضمام إلى إحدى شركات النقل البحري، بعد نيل الشهادة..

كانا في رحلتهما التدريبية فوق إحدى البواخر الضخمة المتجهة إلى (ريودي جانيرو)، وكان على الباخرة أن تقف قبالة شواطئ ميامي، قبل أن تتجه جنوباً.. وفي تلك المرحلة كان عبد المنعم شارداً وهو يستعرض الخريطة أمامه..

- خير؟ ما بك؟ تبدو شارداً يا عبد المنعم؟

- سنعبر منطقة مثلث الموت يا سعد.. مثلث برمودا..

- أتعتقد فعلاً بصحة ما يحكى عنه؟ وأنت بحار متمرس؟

- تعلم أنها أول مرة نبحر فيها في هذه المنطقة.. وقد استعرت من القبطان (ديلاتوري) هذا الكتاب عنه

- أرني..

كان عنوان الكتاب (مثلث برمودا) وقد بدا ضخماً ملون الصفحات

قال عبد المنعم:

- قلبت فيه أمس قبل أن أنام، لو صدقت حوادثه، لعنى ذلك أننا قد نتعرض لخطر فعلاً

- لم نسمع عن حوادث جديدة منذ زمن طويل، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا سعد.. ولكن من يعلم؟

- هل أنت خائف؟ معقول؟ ستمر الباخرة على طرف المثلث ولن تدخل في عمقه.. أنت تعلم أن السفن والبواخر بشكل عام تتجنب الدخول داخل المثلث..

- من الغريب يا سعد أنني منقبض النفس منذ أن استيقظت في الصباح، وربما لأن ما في الكتاب من أرقام وحقائق - كما سماها مؤلفه - أثرت على نفسيتي..

- على كل حال لا يعلم الغيب سوى الله سبحانه وتعالى.. هيا يجب أن نلتحق بعملنا، الباخرة ستتحرك خلال ساعتين..

- حسناً أنا قادم..

وظل عبد المنعم يشعر بقلق، والباخرة على وشك الإقلاع من مرساها قبالة شواطئ ميامي، ولحظ القبطان شرود عبد المنعم.. فاعتقد أنه يشعر بحنين لوطنه وتبادل الحديث مع سعد..

- ما به صديقك يا سعد؟ أراه شارداً حزيناً؟

- إنه مشغول الفكر يا سيدي

- هل ما زال متعلقاً بماريا الإسبانية؟

- ربما.. ولكن ما يشغل فكره هو أمر آخر

- خير؟

- الكتاب الذي أعرته إياه أمس.. مثلث برمودا..

- ها.. هو خائف من عبورنا على أطراف المثلث؟

- أعتقد ذلك..

- هذا إحساس مرفوض في البحر يا سعد.. يجب ألا نخاف من الإبحار في أية ظروف، إنها مهنتنا، وعبد المنعم سيصبح قبطاناً بعد عام، وربما سيصبح مسؤولاً عن باخرة أضخم من باخرتنا.. يجب ألا يعرف الخوف من البحر طريقه إليه..

- معك حق يا سيدي..

- على كل حال لا تقل له إنني عرفت سر شروده.. أرسله إلي

- حسناً يا سيدي..

ونقل سعد رغبة القبطان إلى صديقه عبد المنعم:

- القبطان يريدك.. إنه ينتظرك في غرفة القيادة..

- ألم يقل لك لماذا يرغب في رؤيتي؟

- لا.. ربما سيكلفك بعمل ما..

- بدأت الريح تتحرك، أعتقد أننا سنرى الأهوال في رحلتنا..

- أرجوك.. خفف هذا الإحساس بالتوتر والعصبية، وحاول أن تكون هادئاً مع القبطان..

- حسناً يا سعد..



- ٢ -

- أصبحنا في عرض البحر الآن.. أنت تقوم بعملك جيداً يا عبد المنعم.. راقبتك في قياساتك، وإشاراتك، وأوامرك إلى البحارة.. ستصبح قبطاناً ممتازاً

- شكراً لك يا سيدي..

- لاحظت شرودك منذ الصباح، أتفكر بوطنك؟

- أحياناً أتذكر أهلي يا سيدي.. ولكن ليس هذا ما يشغلني..

- هي ماريا إذن؟

- لا.. ليست ماريا أيضاً.. إنه الكتاب الذي استعرته منك.. مثلث برمودا، أو مثلث الموت كما يسمونه..

- إنه كتاب مبالغ به.. فيه الكثير من الخرافات..

- ولكنه يقدم أرقاماً وتواريخ عن حوادث اختفاء في السفن أو الطائرات..

- ربما كانت كلها حوادث جرت في المحيط الأطلسي، وألصقت بهذه المنطقة..

- أي إن كل تلك الحوادث لا علاقة لها بالمثلث المذكور؟

- لا أستطيع أن أجزم لك بكل تلك الحوادث، ولكني أعتقد أن مثلث برمودا، خرافة، بالغ فيها الإعلام كثيراً.. حاول أن تروح عن نفسك يا عبد المنعم، وتجول بين الركاب، وهدئ من روعهم، قد تتعرض الباخرة لعاصفة خلال ساعتين أو ثلاث

- حاضر سيدي..

صعد عبد المنعم إلى سطح الباخرة، كان هناك الكثير من الركاب يتجمعون في المقصف الرئيسي، وموسيقا اتباعية تعزفها فرقة الباخرة، وكانوا يتبادلون الأحاديث بمختلف اللغات.. ولفت نظر عبد المنعم سيدة وفتاة، بدت وكأنها ابنتها، كانتا منعزلتين تجلسان بعيداً عن صخب الركاب وعبثهم.. فجلس قريباً منهما.. يستمع إلى حديثهما الخافت:

- سيستقبلنا أخوك في (الريو) يا ابنتي.. لا تقلقي..

- ربما لم يستلم البرقية، ولا الرسالة؟

- بالتأكيد أنه استلم إحداهما.. لماذا القلق؟ أنت تعرفين اللغة قليلاً وعنوانه معروف، لن نتعب في الوصول إليه..

- ونحن وحيدتان، قد يستغل المتطفلون وحدتنا؟

فكر باهتمام: «إنهما عربيتان ويبدو أنهما تسافران وحيدتين»

- لقد اخترت الباخرة، لأن جوها مسل، لكي أخرج الحزن من قلبك.. ثم إن أخاك هو من طلب مني إحضارك لزيارته.. لتخففي قليلاً من عزلتك، بانتقالك إلى جو جديد..

- لا أدري يا أماه.. أشعر أنني منقبضة النفس، من الصعب أن يدخل العزاء إلى قلبي..

تردد عبد المنعم في مبادلتهما الحديث، لا بأس لو شاركهما الحديث، سيتعزيان حين يعرفان أنه عربي، اقترب منهما:

- عذراً، سمعت حديثكما..

- أنت عربي؟ تبدو بلباسك كأنك ذو رتبة كبيرة بين البحارة

- نعم يا خالة، أنا أحد مساعدي القبطان..

- هل هذه الباخرة تعود لأحد العرب؟

- لا.. أنا أدرس علوم البحار، ووجودي هنا للتدريب فقط.. هه تقصدان البرازيل؟

- نعم..

- سنصل إليها بعد ستة أيام، ستوقف قليلاً في جامايكا.. وربما في مرفأ آخر، قبل أن نصل (ريودي جانيرو)

- ستظل بصحبتنا؟

- نعم يا خالة.. أنتما وحيدتان؟

- نعم.. وهذه ابنتي (عايدة).. إنها ترتدي السواد منذ أكثر من عام..

- ولماذا؟

- توفي زوجها وهي في شهر العسل، مشاجرة حاول أن يفضها بين شخصين، فأصابته رصاصة شخص ثالث..

- رحمه الله.. وتقصدان البرازيل للزيارة؟ أم للإقامة؟

- لا نعلم شيئاً بعد، ربما يطيب لنا المقام هناك..

- أرجو لكما رحلة سعيدة.. إن احتجتما شيئاً، فاطلبا من أي بحار أن يصل إلي، فسأحضر سريعاً.. ولي صديق أيضاً من بلدي، اسمه سعد، سيساعدكما أيضاً.. اسمي أنا عبد المنعم..

بدأت الباخرة تهتز، وقد بدا أن العاصفة على وشك الحدوث، لحظ فرقهما.. سألته العجوز:

- لديك عمل الآن؟

- نعم.. ولكن يمكن تأجيله قليلاً..

- الباخرة تميل قليلاً في حركتها، والرياح تشتد.. هل هناك عاصفة قادمة؟

- هذا طبيعي، وهذا النوع من البواخر يقاوم أشد العواصف البحرية عنفاً.. لا تقلقا.. هل أحضر لكما شاياً ساخناً؟

- لا داعي..

ولكنه أصر على ذلك:

- لا بأس يا خالة.. لحظات ثم أعود إليكما..

بدا لهما شاباً طيباً.. قالت الأم متنهدة:

- الحمد لله، لو تعرفنا به قبل أيام، كنا نسينا وحدتنا.. ولكن لا بأس سيساعدنا حتى نصل (الريو) وأحضر لهما الشاي بعد قليل، وجلسوا يتحادثون، والعاصفة تزداد بالتدريج.. وأعطى القبطان أوامره بعد وقت قصير للركاب بأن يلتزموا قمراتهم ويغلقوا نوافذ المقصورات الداخلية..

وإن احتاج الأمر أن يربطوا أنفسهم بأحزمة المقاعد الثابتة في قمراتهم، وأن يلزموا الهدوء ولا يخافوا فالعاصفة التي بدأت لن تستمر طويلاً ولن تؤثر على الباخرة..

واشتد عصف الرياح، وازدادت الباخرة ميلاناً على اليمين والشمال والقبطان (ديلاتوري) يبذل جهده للخروج من العاصفة بسلام.. وأوصل عبد المنعم المرأتين إلى قمرتهما، وأرشدهما كيف تتصرفان إذا ازدادت العاصفة هيجاناً.. ثم اتجه صوب غرفة القيادة يتلقى أوامر القبطان..

وازداد المطر هطولاً.. وصحبته الصواعق أيضاً..

قال سعد:

- غريب.. أن يحدث مثل هذا الهطول، ونحن نقترب من آب في مثل هذا الوقت من السنة.. يا عبد المنعم..

- إنه المحيط الأطلسي يا سعد.. مناخه متقلب باستمرار..

- معك حق

واندفعت أصوات الصفارات ليربط الركاب أحزمتهم في مقاعد القمرات

- يبدو أن العاصفة تزداد عنفاً

- أجارنا الله..

- لا بد أن تلك المرأة العجوز وابنتها في أسوأ حال الآن؟

- نعم.. ما رأيك لو ذهبت إليهما؟

- لا بأس ولكن لا تتأخر، وانتبه جيداً في حركتك، الباخرة تزداد اهتزازاً..

- لا تخف. سيعينني الله..

بصعوبة بالغة تمكن عبد المنعم من الحركة في الممرات، حتى وصل الدرجة الأولى حيث قمرة المرأتين، كان ينتقل من نتوء إلى نتوء وهو يتمايل، وقد شكر ذلك الصانع الماهر الذي وضع تلك النتوءات المعدنية في الممرات، كأنه.. وتوقف أمام القمرة يطرق الباب.. فسمع صوت الأم تطلب منه الدخول، كانتا تتمسكان جيداً بالمقعدين وقد ربطتا حزاميهما جيداً. قال عبد المنعم:

- جيد أنكما ما تزالان تتمسكان بالقواعد..

- هذا الحزام مفيد جداً.. بالفعل..

عظيم.. جئت أطمئن عنكما..

- هل ستظل طويلاً هذه العاصفة العنيفة؟

- لا.. هي في أوجها الآن.. وستنحسر قريباً..

- يا رب لطفك وعفوك..

- لا تقلقي يا خالة.. كل شيء سيكون على ما يرام بعون الله..

- يارب..

وانبعث دوي هائل أشبه بانفجار كانت صاعقة قد انقضت على الباخرة، التي أخذت تهتز وترجرج.. طمأنها:

- هناك موانع للصواعق في كل الأطراف، لن تصاب الباخرة بأذى، إنها مجهزة بأحدث تقنيات الأمان..

- إن شاء الله يظل هذا الأمان موجوداً.. أنت تروح وتجيء.. الاهتزاز يزداد، لماذا لا تربط نفسك بالمقعد الثالث؟

- يجب أن أعود، قد يحتاجونني في هذا الوقت الحرج؟

- وتتركنا وحدنا وسط هذا الغضب الإلهي؟

- أنا آسف يا خالة..

- على كل حال، يمكنك الذهاب، ربما غضب عليك رؤساؤك..

قالت عايدة: - إن انتهت العاصفة على خير، نرجو أن نراك..

- إن شاء الله..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

وصمدت الباخرة للعاصفة العنيفة، التي استمرت ساعتين متواصلتين وبدأت تنحسر شيئاً فشيئاً.. وفي نحو الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم، كانت الباخرة تسير وسط بحر هادئ تقريباً.. وكان (ديلاتوري) قلقاً وقد أخفى قلقه عن الجميع.. فالعاصفة العنيفة دفعت بالباخرة إلى وسط مثلث برمودا..

ورغم أنه لم يكن يعتقد في داخله بصحة الحكايات والإشاعات عنه، فإنه في تلك اللحظات كان يشعر بالقلق..

أعطى أوامره بتصحيح الاتجاه نحو الجنوب، وبدأ يدور بين القمرات مع اللجنة الطبية في الباخرة، يطمئن عن أحوال الركاب الصحية.. كان سعد قد قبل رجاء عبد المنعم أن يذهب لقمرة المرأتين ويطمئن عنهما، وقد أوكل إليه القبطان مهمة رسم الخط الملاحي الجديد للباخرة.. وهكذا اتجه سعد إلى قمرة المرأتين.. طرق الباب ففتحت له (عايدة) وحالما رآها شعر بقلبه يضرب بعنف..

- أنا سعد.. رفيق عبد المنعم..

- أهلاً وسهلاً.. هل عبد المنعم بخير؟

- نعم.. نعم.. إنه يقوم بعمل كلفه به القبطان.. أرسلني لأطمئن عنكما..

- تفضل. لماذا تقف بالباب..

قالت الأم:

- أهلاً بك يا بني.. أنا آسفة أتعبتني العاصفة..

- أيؤلمك شيء؟ متوعكة؟

- لا.. فقط متعبة من الجهد الذي بذلته.. إنه السن يا بني.. أتى القبطان وأطباء وممرضون وممرضات.. لم أشتك من شيء. وقد طمأنني الطبيب..

- الحمد لله.. وأنت يا آنسة؟

- اسمي عايدة.. أنا بخير..

قال مرتبكاً:

- أرجو أن تتجاوزا ما جرى إبان العاصفة.. سنوزع على الجميع طعاماً استثنائياً بعد قليل.. إنه من طاقم الباخرة، تعويضاً

عن القلق والخوف والساعات الحرجة.. هه.. إن احتجتما شيئاً.. اضغطا على هذا الجرس.. واذكرا لمن يأتي إليكما اسمي أو اسم عبد المنعم..

- بارك الله فيكما يا بني..

حدث نفسه مرتبكاً: «ما الذي جرى لي؟ لا أستطيع أن أنظر إلى عايدة جيداً»

ودعته عايدة: - شكراً لك يا سعد.. نحن لا نحتاج شيئاً.. يمكنك الذهاب لعملك..

- حسناً.. بإذنكما..

- لماذا أحرجت الشاب يا عايدة.. ربما رغب بالجلوس معنا..

- بدا لي شديد الارتباك.. اعتقدت أنني أريحه بهذا الطلب، إنه يختلف عن عبد المنعم، يبدو خجولاً حساساً..

- لم يعرف أنك بهذا الجمال.. لذلك شعر بالدهشة والارتباك؟

لا تبالغي يا أمي..

- لست أبالغ.. هذا ما شعر به الشاب.. وأعتقد أنه لن ينسى وجهك..

شعرت عايدة بالرضا لكلام أمها، ولكنها تذكرت فجأة وضعها، الصعب، أرملة تحاول الهرب من واقعها المؤلم في وطنها..

فجلست مكتئبة تراقب أمها التي غفت في فراشها سريعاً..

أما سعد فعاد إلى عبد المنعم بوجه متغير..

- خير؟ ماذا جرى لك يا سعد؟

- لا شيء.. أنا بخير..

- هل كانت حالة السيدتين على ما يرام؟

- نعم.. لم تقل لي إن عائدة جميلة إلى هذا الحد؟

- إنها فتاة مسكينة ترملت في العام الماضي، وهي في شهر العسل..

- قلت لي ذلك..

- خير؟ تبدو معجباً بها..

قال بارتباك: - اعتقدتها إنسانة عادية و..

- وهي فعلاً إنسانة عادية، إلا أنها جميلة جداً كما أعتقد..

- أما تزال معلقاً بماريا يا عبد المنعم؟

قال عبد المنعم متنهداً: - نعم.. يا سعد.. أنا أحبها أكثر من كل شيء في حياتي..

زفر بارتياح: - هكذا إذن؟ هه يبدو أنني بدأت أعجب بعائدة..

لجأ سعد إلى فراشه مبكراً، وأشعل المصباح فوق رأس الفراش وهو يقلب بكتاب (مثلث برمودا).. بعد أن أخبره عبد المنعم أنهم في قلب المثلث الآن..

لقد قذفتهم العاصفة بعيداً عن خط سيرهم المرسوم، وحين طلب القبطان من عبد المنعم رسم خطهم الملاحي الجديد، كان عليه أن يرسم خطاً من قلب المثلث إلى الجنوب متجاوزاً الجزر الكوبية نحو شمال أمريكا الجنوبية..

بعد أن ألغت العاصفة مرور الباخرة في (جمايكا).. أخذ سعد يقلب في صفحات الكتاب وطيف عايدة يعاوده أحياناً..

ولكن غرابة الحوادث التي كان يقرؤها، أوجعت قلبه من الخوف..

«في الخامس من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٥ قامت خمس طائرات من قاعدة (فورت لادرديل) في رحلة استطلاعية تدريبية عادية في الساعة الثانية ظهراً، والشمس ساطعة والرياح

شمالية شرقية، وبعد انتهاء التدريبات تلقى برج المراقبة رسالة من قائد التشكيل..وجرى معه حوار غريب..

- الموقف غير مفهوم.. لم نعد نرى طريق الغرب.. كل شيء يبدو معطلاً، لا نعرف أين نحن ولا في أي اتجاه..

- ألا ترى المنطقة؟ صفها لنا..

- أحاول أن أجد القاعدة.. كأننا فوق (كينسي)، لكنني لا أستطيع تعيين انخفاضها وجهة البرج.

- طر شمالاً حيث تكون الشمس جهة الشاطئ. فستصل إلى القاعدة..

- طرنا قبل قليل فوق إحدى الجزر الصغيرة ولم نشاهد جزراً أخرى.. آه.. لا نعرف أين نحن.. ما الذي يجري لنا؟ آه..

وانقطع الاتصال

- يبدو أن الاتصال قد انقطع يا سيدي.. ماذا سأفعل؟

- حاولي متابعة الصوت على الموجة نفسها.

- كأن هناك أصواتاً مختلطة..

كانت جملاً مقطعة «قاعدة (فورت لادرديل).. قاعدة (فورت لادرديل)»

- إنه يعود من جديد.. تابعي الصوت..

- «قاعدة (فورت لادرديل) »

- نحن معكم.. أين أنتم الآن؟

- «لسنا متأكدين أين نحن، نعتقد أن مكاننا يبعد (٢٢٥) ميلاً باتجاه الشمال الغربي من القاعدة، وقد نكون اجتزنا فلوريدا ونحن فوق خليج المكسيك»

- سنرسل لكم نجدة.. أتسمعني؟

وانقطع الاتصال من جديد وصدرت الأوامر، جهزوا الطائرات المستنفرة للانطلاق صوب خليج المكسيك..

وانطلقت الطائرات الأربع.. وتبعتها بعد قليل طائرة الإنقاذ (مارتن ماريز)

وبدا وكأن الصوت عاد من جديد.. كأنه نداء استغاثة..

«النجدة.. كأن ما نراه هو ماء أبيض. لقد ضعنا»

- ستصل إليكم النجدة بسرعة لا تقلقوا، حاولوا أن تصمدوا..

- لقد انقطع الصوت من جديد..

وتابع البرج نداءه لقائد الطائرة (مارتن ماريز) الذي تحدث (بالراديو):

- أنا أنطلق بسرعة كبيرة، ومعي طاقمي الجاهز للإنقاذ..

- ابق على اتصال معنا..

- إن شاء الله.. نحن ننطلق الآن في اتجاه خليج المكسيك..

كان ذلك في الساعة الرابعة بعد ساعتين من انطلاق الطائرات الخمس.. وبعد دقائق كانت (مارتن ماريز) تتجه نحو خليج المكسيك تمسح المنطقة.. وهي ترسل رسائلها إلى القاعدة بانتظام.. وبعد مدة قصيرة تلقى برج المراقبة رسالة من قائد الطائرة يقول فيها: إن هناك رياحاً قوية على ارتفاع ستة آلاف قدم..

- وفي أي مكان أنت الآن؟

- يا إلهي ما أشد عصف الرياح.. آه..

ثم انقطع الاتصال يبدو أن الطائرة ضاعت أيضاً.. بدا أن هناك شيئاً خطيراً يحدث في المنطقة.. وأعلن الاستنفار في القاعدة..

وقرأ سعد في الكتاب عن اختفاء الطائرات الست، وأرسلت سفن وزوارق للبحث، ومع تباشير فجر اليوم التالي انطلقت (٣١٦) طائرة من بينها (٧٦) طائرة إنقاذ للبحث عن حطام

الطائرات المفقودة.. كما اشتركت في البحث مئات الطائرات الخاصة، وزوارق المغامرين، ومراكب السباقات، وعدة غواصات وزوارق تابعة للبحرية الأمريكية، حيث غطوا في بحثهم مساحة (٣٨٠) ألف ميل مربع في المحيط الأطلسي والبحر الكاريبي وخليج المكسيك.. والجزر القريبة من فلوريدا..

وزادت ساعات الطيران عن (٤) آلاف ساعة، ولا أثر ولا خشبة طافية.. هل انفجرت الطائرات دفعة واحدة ولم تترك أثراً؟ وهل الماء الأبيض يشير إلى الضباب؟ وإذا لم تنفجر الطائرات لِمَ لَمْ تهبط إحداها هبوطاً اضطرارياً.. وخاصة أن البحر كان هادئاً والسماء صافية؟.. وتجهيز زوارق النجاة لا يستغرق أكثر من دقيقة..

ما هو سبب الانفجار إن كانت تلك الطائرات قد انفجرت حقاً؟ هل هو عمل تخريبي، أم عطل أصاب الطائرات جميعها في الوقت نفسه؟

أسئلة محيرة وبعضها يبدو جوابه غير منطقي، ولكنها ترددت على ألسنة الناس في القاعدة وبين أعضاء لجان البحث والتقصي..



- ٤ -

تابع سعد قراءته مذهولاً.. ولم يستطع النوم، وفجأة اهتزت الباخرة اهتزازاً جعل سعداً يرتفع عن سريره ثم يرتطم به.. وشعر أن شيئاً غير عادي يحدث.. فخرج من قمرته.. صوب حجرة القيادة..

كان القبطان (ديلاتوري) مستنفراً مع طاقمه وقربه عبد المنعم..

- ما الذي جرى يا سيدي؟

- لم نعرف بعد يا سعد.. المؤشرات تتذبذب، كأن شيئاً غريباً يحدث..

- نحن في قلب المثلث يا سيدي.. أيمكن أن يكون؟

- لست أدري يا سعد.. ما زلنا مسيطرين على الوضع..

- لا بد أن الركاب خائفون الآن.. يجب أن تشرح لهم الأمر ولكن ماذا ستقول لهم؟

- إنه دوار من دوارات المنطقة.. ولا خوف على الباخرة.. اذهب وبعض البحارة واشرحوا لهم المسألة، حتى لا يفاجؤوا باهتزاز جديد.. وليلتزموا المقاعد الثابتة في قمراتهم، وليربطوا الأحزمة أيضاً..

- حسناً يا سيدي

خرج سعد يتجول رأى امرأة عجوزاً كانت تبكي:

- لماذا تبكين يا سيدتي؟

- ابنتي أغمي عليها من الخوف..

- لماذا؟ سأرسل في طلب الطبيب..

- خافت أن تنشطر الباخرة.. رأت حلماً مزعجاً..

- نحن نمر بمنطقة دوارات، لا داعي للخوف، الباخرة مصممة لمقاومة ذلك، ادخلوا إلى قمراتكم واربطوا الأحزمة على المقاعد الثابتة..

- استيقظي يا ابنتي أرجوك..

صب كأساً من الماء وهو يتمتم: - ستستيقظ.. لا تقلقي..

فتحت عينيها: - آه.. أين أنا؟ أنا خائفة يا أمي..

قال لها :

- لا داعي للخوف يا آنسة، إنها منطقة دوارات مررنا بها كثيراً، ليست خطرة، والباخرة أقوى بكثير من أن تؤثر عليها الدوارات

- أنا خائفة.. رأيت حلماً فظيعاً.. كان البحر يفغر فاه الواسع لابتلاعنا، لَفَّتْنا دوامة رهيبة ودخلنا في قمعها المخروطي حيث الظلام والأشباح الخرافية..

- ربما أثرت عليك العاصفة التي مررنا بها، فأتاك هذا الحلم

قالت الأم:

- أحلام ابنتي مخيفة، إنها تقع دائماً وتتحقق..

- أرجوك يا سيدتي أن تحاولي تهدئتها وتهدئة نفسك، لا داعي للخوف، باخرتنا ليست زورقاً صغيراً..

- ساعدنا يا بني.. لنجلس في القمرة..

أسند العجوز وساعد الفتاة على النهوض حتى دخلتا القمرة ثم همهم مؤكداً :

- للاحتياط أنصحكما بربط حزام الكرسي الثابت.. قد نمر بدوار آخر..

تنهدت العجوز: - يا رب أجرنا برحمتك..

واتجه سعد نحو قمرة عايدة وأمها، وقلبه يخفق، كانتا تجلسان ساهرتين وهما خائفتان قليلاً..

وحين رأتا سعد، أشرق وجهاهما بالفرح..

- الحمد لله، جاء من يشعرنا بالأمان..

- شكراً لك يا خالة.. أرجو ألا يكون ما حدث قد أخافكما..

- بل أخافنا كثيراً..

- إنها دوارات تشتهر بها هذه المنطقة من المحيط، لا خوف منها..

- كأن رحلتنا مليئة بالمتاعب..

- لا تخلو رحلة من رحلات بواخر الركاب في هذه المناطق من أيام يشتد فيها عصف الرياح وتعلو أمواج البحر.. إنها أوضاع طبيعية..

- لن نصل (الريو) إلا وقد أنهكنا تماماً..

- ساعات قليلة ويعود البحر إلى صفائه وسكونه..

- كم تمنينا لو نجلس على السطح نراقب القمر وهو بدر في جو ساحر بديع..

- أمي تكتب الشعر يا أستاذ سعد..

- حقاً يا خالة؟

قالت وهي تزفر:

- أحاول أن أستفيد من أوقات الفراغ بالمطالعة والكتابة.. أحكام السن يا بني..

- وأنت يا آنسة (عايدة)؟ أتكتبين الشعر أيضاً؟

- لا.. أنا مهندسة مدنية..نادني بـ (عايدة).. يا سعد..

كان سعد قد بدأ يشعر بالألفة تجاهها..

- ألن تربط الحزام أيضاً؟

- لن أبقى طويلاً، جئت لأطمئن عنكما فقط..

- وأخبار رفيقك عبد المنعم؟

- إنه مشغول مع القبطان.. نوبته ليلية..

واهتزت الباخرة وتمايل سعد وصرخت عايدة بخوف: - انتبه يا سعد..

ولكن سعداً لم يتمكن من حماية نفسه فسقط ثم تحامل على نفسه فنهض:

- الحمد لله، كان ارتطاماً خفيفاً.. إنه دوار آخر كما يبدو..

وبدأت الباخرة تهتز وتتمايل دون توقف.. وتمكن سعد بصعوبة من الجلوس على المقعد الثالث قرب السيدتين وربط الحزام وهو يشعر بقلق فظيع.. أتكون تلك البداية.. بداية النهاية في مثلث الموت.. نظر نحو (عايدة) بحنان.. وأخذ يحكي لها ولأمها حوادث وحكايات محاولاً التسرية عنهما.. ولكن صوت فرقعة قوية انطلقت من جديد.. مصحوبة بدوي قاصف..

قالت الأم:

- يبدو أننا نواجه خطراً.. أليس كذلك؟

- باخرتنا قوية يا خالة، ومرت بالعديد من الأخطار في البحر وتجاوزتها بقوة..

همست عايدة:

- أرى الخوف والقلق على وجهك يا سعد.. لماذا؟

- خائف من عدم الصمود..

- إلى هذه الدرجة؟ يعني أن الخطر كبير..

تنهد: أرجو ألا يكون كذلك..

- أنا أعرف أن العاصفة دفعتنا بعيداً عن خط سيرنا.. هل أضعنا الطريق

- مستحيل أن تضيع باخرة بمثل تقنية باخرتنا وتطورها..

صرخت الأم: - بماذا تتهامسان؟ هل يخفي عنا سعد شيئاً يا عايدة..

- لا يا أمي.. أسأله عن الأجهزة الحديثة التي تساعد في إبحار الباخرة..

- قلبي يحدثني أن شيئاً سيحدث لنا يا عايدة..

- اطمئني يا أمي، كل الأمور تسير على ما يرام.. إنها دوارات بحرية فقط

فكر سعد قلقاً: «يا إلهي أعنا على الساعات المقبلة.. ونحن ندخل مثلث الموت»

☆ ☆ ☆

- ٥ -

وفي غرفة القيادة، كان القبطان (ديلاتوري) يراقب ما يجري بقلق، وبدأ يستعيد الأحداث التي سمعها من رفاقه أيضاً حول مثلث برمودا..

كانت السفن والبواخر تتجنب أن يقع خط سيرها في المثلث المذكور، لذلك كانت كثيراً ما تظل قبالة الشواطئ في رحلاتها على الساحل الأمريكي..

ولم ينس (ديلاتوري) تلك الحادثة التي حصلت في المثلث، وهي اختفاء (طاقم الباخرة - روبيكون) كان الأمر غريباً مدهشاً.. كان ذلك في أيار عام ١٩٤٤ كانت الباخرة في طريقها نحو الشاطئ الأمريكي الجنوبي، وحدثت لها العاصفة نفسها التي تحدث لباخرته الآن، وبدأت ذكريات الحادثة تتدفق في ذهنه كما قرأها من الصحف، بعد أن أخرجت فرق البحث نتائجها الأخيرة. كان هناك عشاء حافل أقامه (القبطان) حضره غالبية ركاب الدرجة الأولى:

- أرجو أن يعجبكم العشاء إنه احتفال صغير

- عشاء ممتاز، أنتم محظوظون بطباخكم هذا..

- كانت نصيحة ممتازة بالسفر على متن الباخرة (روبيكون) أليس كذلك؟

- بلى.. كل شيء رائع فيها..

- أهلاً بكم نرجو أن تقضوا بصحبتنا وقتاً ممتعاً..

ودخل جون مساعد القبطان وهو يرتجف من الانفعال:

- سيدي..

- ماذا يا جون.. ماذا تريد؟

- إنه أمر طارئ

بدا متردداً وهو يلحظ القبطان يجلس وسط الضيوف، لحظ القبطان تردده، استدعاه إليه فهمس في أذنه:

- شيء غريب طرأ على المحركات فهي لا تستجيب لنا..

- ماذا تقول؟

- أرجوك يا سيدي يجب أن تحضر سريعاً

اعتذر من ضيوفه وهبط إلى غرفة المحركات:

- انظر يا سيدي البوصلة تدور بعكس عقارب الساعة..

- الضوضاء شديدة هنا.. ما الذي جرى للمحركات؟ هل أصابها عطل ما؟

- لا يا سيدي.. فقط الضوضاء تزداد، البوصلة تدور بشكل فوضوي المؤشرات جميعها غير صحيحة..

- يا إلهي ما هذا؟ يبدو أننا ندخل في منطقة ضباب كثيف..

- كان الطقس رائعاً قبل دقائق.. كيف تشكل الضباب في هذه المنطقة الدافئة؟

أخذت الباخرة تهتز وتدور، كان يبدو أن الباخرة تتعرض لدوامة بحرية

- يا إلهي كأن الماء يندفع في كل اتجاه.. ضاعت ملامح المكان.. الضباب يغطي كل شيء.. كأن السماء تختلط بالبحر.. والأمواج تزداد علواً والبحر يزداد هيجاناً.. ما الذي يحدث؟ كأن شيئاً يحاول جرنا للخلف، المولدات تتوقف عن العمل.. كان هناك.. ركاب كثيرون ألقوا بأنفسهم في البحر، والأضواء تزداد حولهم كأنها تجذبهم إليها، إنهم شبه مخدرين..

- إنها الكارثة.. ما الذي يجري لنا؟ نحن في صراع مع المجهول..

- الأضواء تزداد يا سيدي.. أضواء غريبة في الجو..

- ربما حضرت الطائرات لنجدتنا..

- كيف؟ ونحن لم نرسل أية إشارة، لأن كل أجهزة الاتصالات معطلة..

- ربما اكتشفوا العطل في بثنا، فأتوا إلينا..

- انظر يا سيدي.. الأجسام المضيئة تطير حولنا في كل اتجاه..

- يا إلهي من أين تأتي هذه الأجسام؟ انظر إلى الكلب، إنه خائف..

مع ازدياد الأضواء القوية، رأى القبطان الكلب يقفز إلى الصندوق ويتمدد فيه خائفاً.. بدت الأضواء كأنها أضواء كشافات قوية وسط الضباب، هل هي طائرات مروحية قادمة للإنقاذ..

وظهرت ملامح الجسم المضيء بدا كأنه أشبه بصحن طائر.. ثم تبعه جسم آخر مضيء، ثم جسم ثالث استقرت هذه الأجسام في الجو ثابتة عن الحركة..

ولكن ما الذي يجري؟ كل شيء يعود إلى طبيعته.. العاصفة تهدأ.. فجأة.. وتظهر النجوم في السماء.. بعد أن انقشع

الضباب.. وما زالت الأجسام فوق الباخرة.. وأخذ أحدها يقترب حتى أصبح على علو أمتار:

- لا تخافوا.. أنتم في ضيافتنا، لن يحدث لكم شيء..

صرخ القبطان: - من أنتم؟

- ستعرفون كل شيء بعد قليل.. ستهبط المقاعد المعلقة بالحبال، اصعدوا عليها ولا تخافوا..

- ولكن.. هذا اختطاف..

- المقاعد تهبط، اجلسوا عليها جميعاً، هيا..

كانوا مسيرين بقوة مجهولة تدفعهم لتنفيذ أوامر الغرباء.. الذين لم يكن يبدو عليهم الشر..

- لا تخافوا.. لن نمسكم بأذى، لسنا مجرمين.. نفذوا أوامرنا فقط..

رأوا أنفسهم بعد مدة يغطسون في الأعماق بغواصة متطورة.. مع عدد من أولئك الغرباء.. ولكن من هؤلاء؟ لماذا لا يتكلمون؟ هل هي غواصة ألمانية وهم في عام ١٩٤٤ ولم تنته الحرب بعد.. إنهم ليسوا بشراً.. بالتأكيد.. فتقنيتهم متفوقة كثيراً لدرجة تبدو كالحلم بالنسبة إلى الناس.. إنهم متطورون بشكل يفوق التصور.. صرخ أحد البحارة:

- إلى أين نحن متجهون؟

- إلى مركز أبحاثنا تحت مياه المحيط..

- تحت مياه المحيط؟

همس البحار: - ألم أقل لكم.. إنهم متطورون كثيراً..

بدؤوا بدخول مدينة صغيرة تبدو قبابها الزجاجية ظاهرة للعيان.. تساءلوا جميعاً:

- كيف تمكنوا من بناء هذه المحطة المتطورة للبحث تحت الماء؟

كانت الأجسام الدائرية تدخل وتخرج من الفتحة.. كأنه مستودع للأطباق الطائرة..

من أي عالم هؤلاء؟ بالتأكيد هم ليسوا بشراً.. فطريقة أحاديثهم وكلامهم المتقطع مختلفة عن البشر. توقفوا في ساحة واسعة.. بدوا لطفاء لم يؤذوا أحداً حتى الآن.. توقفت بهم الغواصة أمام باب ضخم:

- اخرجوا بهدوء.. ستدخلون إلى غرف التعقيم.. ستغيرون ملابسكم وأحذيتكم وستأخذون حمامات من البخار المكثف

وكان التفتيش عن الباخرة (روبيكون) قد بدأ.. انطلقت الطائرات بكثافة ملحوظة مع الفجر، صوب المنطقة التي انقطع فيها الاتصال معها..

وقد سبقت الطائرات، مئات السفن وقوارب الإنقاذ السريعة.. مسحت منطقة شاسعة من المحيط.. وأخيراً عثروا عليها..

كانت خالية تماماً من الركاب، ولا أثر فيها للحياة.. وبعد فترة وهم يتحركون فوقها يفتشون عن أثر لنهب أو لصوصية، عثروا على كلب جائع يختبئ في صندوق..

كانت قمرات الركاب بكل حاجياتهم وأمتعتهم حتى الثمينة منها، لم تمس.. وظلت مرتبة لم تعبث بها يد..



- ٦ -

كان (ديلاتوري) يتذكر ما كتب عن الباخرة (روبيكون) وما وصفته خيالات الكتاب والصحفيين حول احتمالات اختفاء ركابها، دون أثر..

لحظ عبد المنعم شروده والباخرة تهتز وتتمايل..

- تبدو شارداً حزيناً يا سيدي؟ هل تخشى أن تكون في مثلث الموت؟

- نحن في المثلث فعلاً يا عبد المنعم.. أتذكر ما حدث للباخرة (روبيكون) وكيف اختفى (طاقمها) وركابها دون أثر، ولم يحدث لها شيء..

- لماذا (روبيكون) بالذات؟

- لأن جدي كان أحد بحارتها..

- آه.. تذكرت.. (روبيكون) اختفى (طاقمها) في (٢١) تشرين الأول عام ١٩٤٤..

- نعم.. وكان جدي هو من دفع والدي ليكون بحاراً، ووالدي دفعني بدوره لأصبح في هذه المهنة الصعبة..

- نادم يا سيدي؟

- لا.. أبداً.. بالعكس إنها مهنة رائعة.. رغم أنها متعبة..

- ما أزال أذكر تلك الباخرة فعلاً.. ذكرها كتاب كثيرون.. كما ذكروا أن الكثير من (أطقم) بحارة مئات الزوارق والمراكب في المنطقة إضافة لسفن الشحن، قد اختفت..

- لو صح ما نشروا عن مثلث برمودا ما بين عامي (١٩٤٥) و (١٩٧٠) يعني هذا أن أكثر من (١٠٠) سفينة وطائرة قد اختفت، وزاد عدد الضحايا التي فقدت عليها عن (١٠٠) ألف ضحية بشرية.. خلال ربع قرن فقط.. تصور..

- أهو نفسه مثلث الشيطان؟

- أطلقوا عليه قبل عام (١٩٤٥) هذا الاسم، وكان بعض يسمونه مقبرة السفن في الأطلسي، أو بحر الشؤم..

- ولم تحدث في السبعينات أو الثمانينات أو التسعينات أية حوادث مشابهة للحوادث السابقة

- حدثت بالطبع بعض الحوادث، ولكنها لم تصل إلى أعداد مرعبة كالسابق..

- وما السبب؟

- لأن الإبحار أو الطيران فوق المنطقة عد مغامرة كبيرة أو مخاطرة.. لذلك فقد تجنبت السفن والطائرات هذه المنطقة.. ونادراً ما تبحر سفينة أو باخرة في قلب بحر سارغاس الذي هو قلب المثلث المذكور..

وفجأة اهتزت الباخرة بقوة، صرخ عبد المنعم:

- كأننا نصطدم بصخور يا سيدي؟

- انظر يا عبد المنعم.. البوصلة تجن..

- وكذلك مؤشرات السرعة.. سأحاول طلب النجدة..

همهم القبطان بيأس:

- حاولت ذلك قبل قليل.. أرسلت نداءات متفرقة في كل الاتجاهات وبرموز المخاطبة البحرية الدولية.. ولكن كما يبدو فقد الجميع الاتصال بنا..

- إلى هذا الحد يا سيدي؟

- لم نتسبب في الدخول إلى بحر سارغاس يا عبد المنعم..

- أعرف ذلك يا سيدي.. ليس خطأنا.. العاصفة دفعتنا إلى

قلب مثلث برمودا.. رغم كل المقاومة التي أبديناها أمامها، حتى لا نخرج كثيراً عن خط مسارنا.. وماذا سنفعل الآن؟

- لا أدري يا عبد المنعم.. هيا، نخرج إلى السطح.. ولِتُوكلْ لطاقم مدرب من مساعديك أن يحاولوا السيطرة على الباخرة..

- حسناً يا سيدي..

- سأنتظرك.. لا تتأخر..

أوكل عبد المنعم لطاقم مدرب من مساعديه أن يحاولوا السيطرة على الباخرة، واستأذنهم في الصعود إلى السطح مع القبطان، لمتابعة ما يجري..

وحين خرج والقبطان إلى السطح، كانت الاهتزازات في الباخرة تزداد، ولم يكن أحد من الركاب أو البحارة على السطح.. تابع عبد المنعم والقبطان اهتزازات الباخرة، وحين أطلوا من أعلى نقطة في الباخرة على البحر فاجأهم منظر أهلهم..

- أمعقول يا سيدي؟ كأننا في كوكب آخر..

- التيارات تدفعنا للاقتراب من جزيرة كالجبل.. نحن نصطدم بالصخور على الجانبين.. يبدو أنها تيارات شديدة القوة..

- وماذا سنفعل..

- لنهبط بسرعة، يجب أن نبقي الباخرة مكانها حتى تعثر علينا سفن وطائرات البحث..

- وكيف يا سيدي؟

- سنلقي كل مراسينا، حتى الاحتياط منها حول الباخرة كحزام، ولا أعتقد أن التيارات البحرية مهما كانت قوية، تستطيع دفعنا باتجاه الجبل الصخري حيث سيكون هلاكنا..

- فكرة رائعة يا سيدي.. هيا ننفذها على الفور..

واستنفر البحارة بكل نوباتهم لتنفيذ فكرة القبطان، وبعد نحو نصف ساعة أصبحت الباخرة ثابتة في مكانها، رغم عنف التيارات التي تتقاذفها..

وفي غرفة عايدة وأمها شعر سعد أن الباخرة تتوقف تماماً.. فأحس بالارتياح ..

- ماذا جرى يا سعد؟ لقد توقفنا - أنا أرى من النافذة الصغيرة أننا ما زلنا في وسط البحر، كيف تمكنت الباخرة من التوقف..

- لا أدري يا خالة، يجب أن أخرج لأتفقد الأمر، وأعرف ما حدث..

- ولكن يجب أن تعود بسرعة لتخبرنا..

لحقت به عايدة:

- أعلم أننا في وسط مثلث برمودا يا سعد..

- ماذا تقولين؟ وكيف عرفت؟

- قرأت كثيراً عن المنطقة.. وحين رأيت خوفك قبل قليل، ظننت أن العاصفة ساهمت في صرفنا عن خط سيرنا، ومن ثم، دفعتنا نحو بحر سارغاس

- يا إلهي.. يجب ألا تعرف والدتك ذلك.. ثم لا داعي للقلق، أعتقد أن كل ما كتب عن مثلث برمودا مجرد مبالغات وإشاعات سيطرت عليها الخرافة

- ليس كل ما كتب يا سعد.. وإنما بعضه فقط..

وحين عادت عايدة إلى القمرة همهمت والدتها:

- مسكين سعد، يبدو أنه وقع في حبك يا عايدة..

- ماذا تقولين يا أماه؟ بهذه السرعة؟

- نعم.. أنا متأكدة أنك اكتشفت ذلك يا خبيثة.. وتحاولين أن تتصنعي عدم الاهتمام.. إنه شاب ممتاز يا عايدة..

- مجرد رفيق سفر.. بعد أيام سنغادر الباخرة، وربما لن نراه أبداً..

- لا أعتقد ذلك يا ابنتي.. لا يبدو شاباً من النوع المستسلم..

تنهدت عايدة:

- لا أحد يعرف ما يخبئه القدر يا أماه..

- معك حق يا ابنتي..

☆ ☆ ☆

- نجحنا يا عبد المنعم.. الباخرة متوقفة تماماً..

- أنا خائف ألا يستمر ذلك طويلاً يا سيدي؟

- ماذا تقصد؟ أتقصد أن السلاسل الحديدية التي تحمل المراسي لن تصمد طويلاً..

- نعم يا سيدي، هذا ما أقصده.. فالتيارات البحرية القوية التي دفعت باخرتنا الضخمة المجهزة بأحدث وسائل الإبحار الهادئ.. إلى هذا المكان، قادرة على الخلاص من السلاسل..

- لا تقل ذلك أرجوك.. سنضيع حتماً إن حدث ذلك..

- ما رأيك لو اكتشفنا الجزيرة..

- كيف؟ بإرسال زوارق إلى هناك؟ ستدفع التيارات هذه الزوارق وتحطمها، قبل أن تتمكن من الرسو على الشاطئ..

- ربما.. ولكننا سنستخدم في البداية زورقاً مطاطياً.. ونجهز أنفسنا بارتداء ألبسة الغطس، إن حدث وقلبت التيارات الزورق..

- فكرة جيدة.. ولكن من سيرافقك؟

- رفيقي سعد.. إنه شاب جريء أيضاً كما تعرف..

- لا.. لا.. أعرف أن سعداً مميز أيضاً.. ولكن يجب ألا أخسركما معاً، دع سعداً هنا، وانتق رجالك الذين ترتاح إليهم..

- سأفعل يا سيدي..

أتى سعد بقلب واجف يستفهم من عبد المنعم تفاصيل أسباب الأحداث التي تعرضت لها الباخرة.. وعرف أن هناك خطراً كبيراً يتهددها..

وحاول أن يشارك عبد المنعم في رحلة اكتشافه للجزيرة ومنافذها.. ولكن القبطان رفض ذلك بإصرار..



- ٧ -

انتقى عبد المنعم ثلاثة من رجاله الأشداء، وجهز زورقاً مطاطياً وضع فيه بعض المؤونة، ثم ارتدى ورجاله لباس الغطس وأسطوانات الأوكسجين..

شعر سعد بالحزن وهو يرى رفيق عمره يغادره في رحلة لا يعلم سوى الله إلى أين تنتهي.. وهكذا أنزل الزورق المطاطي بهدوء وهبط عبد المنعم ورجاله بهدوء وهم يلوحون مودعين..

لوح القبطان للرجال المبتعدين:

- لا تقلق.. عبد المنعم شاب شجاع وذكي، ويعرف كيف يتصرف..

- أرجو أن يعود إلينا مع رجاله سالمين..

- إن شاء الله.. أتسمع صوت السلاسل التي تحمل المراسي، التيار القوي يحاول دفع الباخرة، والسلاسل الحديدية تقاومه..

- أتعتقد أن لا خوف على السلاسل من الانقطاع.. لو حدث

ذلك لجرفت التيارات الباخرة نحو الجزيرة.. وربما حطمتها الصخور..

- نحن نقاوم ما أمكننا، وحين يعود عبد المنعم، قد يعطينا اكتشافه للجزيرة إمكانات للخلاص من هذا المأزق الخطير..

- بدأ الركاب يخرجون إلى السطح يا سيدي..

- حاولا أن تهدئاهم، وتقدما لهم تفسيراً معقولاً لما يجري..

- سوف نفعل يا سيدي.. وسأصطحب معي بعض المعاونين..

- لا بأس..

وصل سعد ورجاله قمرة عايدة التي سألته بلهفة عما يجري قال بهدوء:

- نحن نقف قبالة تلك الجزيرة الصخرية.. حتى نختار الطريق الأسلم لمتابعة رحلتنا يا عايدة..

- ولماذا لا تسمحون لنا بزيارة الجزيرة يا سعد؟

- القبطان خائف من أن تدفع التيارات البحرية، الزوارق بقوة صوب الجزيرة مما قد يشكل خطراً على ركابها..

سألت الأم: - وهل سنبقى طويلاً هنا؟

- لا يا خالة

- ما سبب وقوفنا هنا؟ هل أضعنا الطريق؟

- المحيط يخفي أسراراً كثيرة، يبدو أن العاصفة أبعدتنا عن خط سيرنا، نحن نحاول اختيار طريق يتقاطع مع المحيط، كل شيء سيكون على ما يرام.. على كل حال سنوزع الطعام والشراب، وتعزف الفرقة الموسيقية ألحاناً شجية..

همست عايدة:

- ابق قريباً مني يا سعد، أشعر بالأمان معك..

- لن أبتعد عنك إلا لعمل طارئ.. لا تخافي يا عايدة..

شدت على يده:

- لن أخاف وأنا معك..

☆ ☆ ☆

تمكن عبد المنعم ورجاله من السيطرة على الزورق المطاطي والتيارات تدفعه باتجاه الجزيرة، وقد ظهرت نتوءات الصخور التي تفاداها ببراعة..

ووسط دهشته وذهوله شعر أن التيارات تدفعه باتجاه نفق صخري ضخم منحوت بطريقة غريبة، كأنما نحتته يد عملاقة..

وبعد دقائق بدأ الضوء يخف، وسار الزورق داخل النفق الهائل.. تساءل بيتر مساعد عبد المنعم:

- ربما لن نستطيع العودة من الطريق نفسه..

قال عبد المنعم:

- قد نشغل المحركات عند عودتنا لتقاوم التيارات القوية..

إلى أين ينتهي هذا النفق؟ يبدو الأمر غريباً..

- كأنما ازداد اتساعاً.. هناك أضواء في الداخل.. ربما كانت انعكاسات لأشعة الشمس المتسربة من ثقوب في الأعلى..

- لا تبدو أضواءً عادية يا سيدي.. كأنها جزء من الصخور..

- معك حق.. ما الذي يبدو في العمق؟ أعطني المنظار.. معقول؟ يا إلهي

- ماذا ترى يا سيدي؟

- كأنني أرى بشراً يتحركون.. يبدو أننا مقبلون على مغامرة مدهشة..

وتوضحت المشاهد لعبد المنعم ورجاله، فالنفق كان ممتداً إلى الداخل، وانتشرت الزوارق والسفن والبواخر داخل مرفأ هائل الحجم تحت أرض الجزيرة..

كانت بأشكال غريبة، بعضها قديم جداً وبعضها ضخم بصوار متطاولة.. وإلى الجانبين جموع هائلة من الناس.. بدؤوا ينظرون بفضول إلى الزورق المطاطي الغريب..

- معقول؟ المياه تدفعنا في اتجاههم.. نحن نكتشف شيئاً خارقاً يا رجال

- ماذا يا سيدي؟

- أسرار مثلث برمودا..

- هل نحن ضمن هذا المثلث يا سيدي؟ لم أكن أعرف ذلك..

كان هناك ازدحام للوجوه الغريبة التي تنظر إليهم؟ وهم يقتربون من الشاطئ. صرخت امرأة:

- من أي عصر أنتم؟ ترتدون لباساً غريباً.. من أي بلد جئتم..

رد عليها بيتر:

- أنت من ترتدين لباساً غريباً.. هه.. نحن من إيطالية..

صرخت ساخرة:

- أهكذا ترتدون في إيطالية؟

قال رجل إلى جانبها:

- انظري إلى أجسامهم الممتلئة.. لا يبدو أن الشمس لوحتهم، أنتم لستم بحارة.. أنتم قراصنة..

- قراصنة؟ بهذا الزورق الضعيف.. لا.. هذا لا يمكن..

- تقدموا منا، وأوقفوا الزورق، لنتعرف بكم..

- لا نستطيع.. المياه تدفعنا إلى الداخل..

- أتعرفون شيئاً عن زوجي، إنه بحار عظيم.. قبطان البحار السبعة

فكر عبد المنعم قلقاً: «إلى أي زمن ينتمي هؤلاء؟ التيارات تدفعنا إلى الداخل، يبدو أننا سنرى غرائب لا يتصورها العقل.. يا إلهي أعنا..»

أمعقول أن تكون تلك السفن القديمة، من عصور لا تنتمي لعصرنا؟ وما سر هذا النفق الغريب الذي لا ينتهي؟

وما الذي يجب أن يقوم به عبد المنعم وبحارته للائتلاف مع تلك المشاهد..



القسم الثاني

«أنفاق الأزمنة الصعبة»

- ١ -

ازدادت تجمعات السفن القديمة.. وكان الناس يبدون من عصور قديمة أيضاً..

كانت التيارات تدفع عبد المنعم ورجاله إلى الداخل بلباسهم وحركاتهم غير المنتظمة، وبدا النفق هائل الحجم، يمتد في عمق الجبل..

- ما رأيك يا سيدي لو نتعلق بأحد الحبال الممتدة، ونرسو على الرصيف الضخم؟ قد لا نستطيع العودة إن ازددنا تغلغلاً في الداخل..

- حسناً.. يجب أن نكتشف المكان فعلاً، أن نتعرف هؤلاء الناس..

وهكذا علقوا الزورق بأحد الحبال الممتدة..

- شدوا في اتجاه الشاطئ بين هاتين السفينتين..

ركنوا الزورق، أكد عليهم عبد المنعم:

- انتبهوا جيداً لمكانه، سنحاول العودة به بعد أن نستكشف ما حولنا..

- سنفعل يا سيدي..

- هيا نقفز إلى الشاطئ، وأحضروا بعض الطعام، نحن نشعر بالجوع فعلاً..

وتجمع حولهم بعض الناس:

- من أنتم؟ تبدون مختلفين عنا؟

قال عبد المنعم: - جئنا في هذا النفق..

- زورقكم غريب.. وأشكالكم غريبة.. أكثر نعومة منا.. رغم أنكم رجال..

- نحن من بلاد بعيدة، شدنا النفق إليه فوقعنا في فخه..

- أما نحن فقد أرسلتنا الملكة كاترين دي مدسيس، لنصل الأراضي الجديدة ولكننا لم نصل.. كيف حال الملكة، أما زالت تبطش بالناس؟ وكيف حال عرافها الشهير (نوستراداموس)

همس بيتر مستغرباً:

- إنهم من زمن كاترين دي مدسيس ملكة فرنسة في القرن السادس عشر، معقول؟

- لم تقولوا لي، كيف حال ملكتنا؟

قال عبد المنعم:

- لا بد أنكم تحبونها وقد أرسلتكم للأراضي الجديدة..

قالت امرأة:

- أرادت أن تتخلص منا، نحن سجناء وسجينات..

- وما زلتم تحترمونها؟

- لها الفضل في وصولنا إلى هنا.. نحن سعداء في هذه المدينة، تكيفنا مع ظروفنا رغم كثرة الغرباء..

همس بيتر لعبد المنعم:

- أترى يا سيدي؟ نحن نتكلم لغة مشتركة.. إنها تحكي مثلنا، أو ربما نحن الذين نحكي مثلها..

أكد عبد المنعم: «فعلاً، كأنها مفردات لغة جديدة لم نكن نعرفها، كأن النفق علمنا إياها».

☆ ☆ ☆

تابع عبد المنعم ورجاله جولتهم في المدينة الكهفية الغريبة، كانت هناك مجموعة من الناس يتجمعون، اقتربوا منهم يشاهدون عرضاً مدهشاً لرجل عاري القدمين يمشي على مسامير ناتئة فوق لوح من الخشب، وقربه امرأة، بدا لهم فرع الكهف كمكان يمارسون فيه القدرات الخارقة..

كانت المرأة تصرخ:

- أرأيتم؟ لم تتأثر قدماه بالمسامير الناتئة الحادة.. سيبدأ الآن بالمشي على الحجر، وسيبتلع كرات النار أيضاً.. هيا يا حبيبي.. هيا، أرأيتم إنه رجل خارق.. زوجي رجل خارق..

- تساءل عبد المنعم:

- غريب كيف يقوم بهذه الأفعال؟

عادت المرأة تصرخ:

- الآن يا حبيبي.. يا زوجي العزيز، تمدد هنا، وحاول الطيران، هيا أنت لم تتعب بعد. انثروا عليه النقود يا جماعة، حتى يتشجع.. هيا.. انثروا النقود نعم.. هيا يا حبيبي.

وبدا الرجل يرتفع عن الأرض فعلاً.. فكر عبد المنعم: «حين

سأروي ما أراه لن يصدقه أحد.. يا إلهي في أي جو غريب نحن الآن؟»

☆ ☆ ☆

وعلى الباخرة التي أوقفتها المراسي الثقيلة، كان (ديلاتوري) وسعد قلقين من تأخر عبد المنعم.. وقد حضرت عايدة وأمها إلى سطح الباخرة..

كان عدد كبير من الركاب على السطح يتأملون البحر والجزيرة الصخرية التي يرتفع جبلها الصخري عالياً.. وكان ديلاتوري وسعد يراقبان الجبل والجزيرة الصخرية بقلق، وكانت عايدة وأمها من جملة الركاب، تقفان وهما تتأملان ما حولهما بوجوم..

قال ديلاتوري:

- أكثر من عشر ساعات مرت عليهم يا سعد..

- وماذا سنفعل يا سيدي..؟

- سننتظر فقط.. هه.. تلك العجوز والصبية تشيران إليك.. هل تعرفهما؟

- نعم.. إنهما من منطقة قريبة من مدينتنا..

- هل هما عربيتان؟

- نعم يا سيدي..

- يمكنك الذهاب إليهما.. يبدو أنهما تستأنسان بك..

- ألا تحتاجني بشيء الآن؟

- ليس في الوقت الحاضر.. سألجأ إلى قمرتي بعض الوقت، أمامنا ساعات طويلة، وربما أيام سنكون بحاجة لكل ذرة من قوانا..

- معك حق يا سيدي..

وحالما اختفى القبطان اقترب سعد من عايدة وأمها، سألته عايدة:

- كان ذلك هو قبطانكم؟

- نعم يا عايدة..

- وما آخر الأخبار؟ هل عاد رفيقك من الجزيرة؟

- ليس بعد، نحن ننتظر عودته، لنقرر كيف ستتصرف..

- نحن في ورطة حقيقية إذن؟

- لا يا خالة.. لا تقلقي، سنجد الحل الأمثل للخروج من هنا..

تثاءبت العجوز:

- أشعر بالنعاس سأنزل إلى القمرة الآن.. ألن تأتي معي يا ابنتي؟

- لا يا أمي.. سأتبادل الحديث مع سعد..

- كما تشائين.. انتبه إليها يا بني..

- لا تقلقي يا خالة..

أمسك بأصابعها بحنان:

- أنا آسف يا عايدة، لم أرغب برؤيتك قلقة بهذا الشكل..

تنهدت:

- بالعكس، ليس هذا قلقاً على مصيرنا، أنا أفكر بأخي ياسر سيكون أكثر قلقاً على تأخر الباخرة..

- هو يحبك كثيراً إذن؟

- كنا رفيقين في طفولتنا.. وظلت هذه المحبة بيننا حتى سافر مهاجراً إلى البرازيل.

- أكتتما تتراسلان؟

- نعم.. كل أسبوع تقريباً، رغم بعد المسافة..

تنهد وهو يهمس:

- إنه محظوظ لأن له أختاً تحبه هذا الحب..

- أليس لك أخوات؟

- مع الأسف نحن خمسة شبان.. أمي كانت كل شيء بالنسبة إلينا، ولكن القدر لم يمهلها كثيراً، ماتت قبل عشر سنوات..

- رحمها الله، وتزوج أبوك بعدها؟

- نعم.. بعد أقل من أربعة أشهر.. إنه معذور يكره الوحدة كثيراً.. وهي قد أوصته أيضاً بالزواج السريع..

- معقول؟ كيف تنصح امرأة زوجها بالزواج من بعدها، لابد أن أمك كانت شديدة الطيبة..

- نعم.. كانت شديدة الطيبة.. هيا.. سأصطحبك إلى المقصف.. ستبدأ الحفلة الموسيقية بعد قليل..

- أنا بحاجة لذلك فعلاً.. أعطني يدك يا سعد..

أمسك يدها بحنان، وهو يشعر بسعادة بالغة.. وهبطا إلى المقصف في الطابق الذي يلي السطح..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كان عبد المنعم يتجول وبحارته في النفق البحري برصيفه العريض، وكان الازدحام شديداً..

رأى عبد المنعم أن هناك منافذ كثيرة تطل على النفق فأراد وبحارته استكشافها..

دخلوا إحداها، فأطلوا على مدينة كبيرة تضيئها إشعاعات الشمس القادمة من فوهات موزعة في السقف الحجري..

هكذا اعتقدوا في البداية، ولكن تلك الإشعاعات ظلت ثابتة لا تتحرك مع حركة الشمس المفترضة.. وحين فحصها عبد المنعم جيداً، رأى مرايا ضخمة تتحرك قرب الفوهات، بحيث تظل الأشعة القادمة من الفوهات ثابتة..

تجولوا في المدينة يحاولون أن يتعرفوا المجتمع الغريب الذي يسكنها.. رأوا رجلاً متقدماً في السن يمشي الهوينى في ساحة المدينة الرئيسية.. فأوقفوه بلطف..

- عفواً يا عم.. أيمكننا توجيه بعض الأسئلة لك؟

- غرباء؟ هه.. لا بد أن كثيراً من الأسئلة تستفزكم..

- نعم.. ونرجو ألا نضايقك..

تفضلوا.. لا بأس..

سأله عبد المنعم:

- ما هذه المدينة التي نراها الآن؟ ولماذا يسكنها أناس من أزمنة مختلفة؟ يبدو بعضهم قديماً جداً، وبعضهم الآخر كأنهم من العصور الوسطى، وأنا أرى أناساً من عصرنا أيضاً.

- اسمع يا بني، هذه المدينة تشكلت مع الزمن.. وقدم إليها ناس من أزمنة مختلفة، دفعتهم التيارات القوية للدخول في النفق.. ولم يستطيعوا الخروج منه..

- كيف؟ من يدخل إلى هنا لا يخرج أبداً؟

- إنه قدره.. مع الأسف..

- وكيف يمر الزمن؟ أرى أناساً من أزمنة سحيقة..

- الزمن يمر ببطء داخل النفق، وخارج النفق يمر بسرعة.. هكذا أعتقد.. هه.. تبدو غريباً؟

- نعم.. أنا من الشام..

- معقول؟ وأنا أيضاً من الشام، قدمت صغيراً، إلى (مالقة) في الأندلس، وهناك انطلقت مع سبعة من الشبان الأشداء في اتجاه الأراضي الجديدة.. فاصطادنا تيار هذه الجزيرة العجيبة.

- أنت واحد من الفتية المغامرين..

- نعم.. قل لي أما زال العباسيون يحكمون الشام؟

- العباسيون؟ معقول. يا إلهي..

- لم تجبني؟

- العباسيون ذهبوا، أتى بعدهم المماليك، ثم الأتراك، ثم الفرنسيون والإنكليز ثم ذهب هؤلاء، وأصبحنا أحراراً نحكم أنفسنا..

- ذهب العباسيون؟ معقول؟

- ما عمرك يا عم؟ تبدو كمن هو في سن نوح عليه السلام (٩٥٠) عاماً..

- ماذا تقول يا بني؟ نحن لا نعرف أعمارنا، الزمن يمشي ببطء بالنسبة لنا.. هه.. سأعرفك بـ (يوسف) الكنعاني.. إنه بحار متمرس قاد سفينته إلى هنا مع العديد من رفاقه الكنعانيين..

- الفينيقيون وصلوا إلى هنا؟ الدراسات تؤكد أنهم وصلوا فعلاً الأراضي الجديدة، ولم يكن كريستوف كولمبس سوى آخر المكتشفين، ولكنه سرق باكتشافه كل الأمم القديمة.

- لا أعرف عمن تتحدث، ولكن تعال معي سأعرفك بيوسف الكنعاني.. هيا..

همس بيتر: - مطمئن له يا سيدي؟

- نعم.. لا تقلقوا..

قادهم المالقي في ممر ضيق ثم توقف أمام باب منقوش مزخرف بالكتابة العربية وطرقه بلطف وبعد لحظات فتح له رجل كبير السن.. يبدو قوي البنية:

- أهلاً بك يا أحمد.. هه.. معك ضيوف؟

- نعم.. أحدهم من الشام.. من مدينة قريبة من (أنتر دوس) كنعاني أيضاً..

- أهلاً بك يا بني.. تفضلوا..

صرخ يوسف الكنعاني يستدعي ابنته:

- أين أنت يا كولا.. تعالي يا ابنتي..

حضرت صبية شهق عبد المنعم لرؤيتها كانت باهرة الجمال:

- نعم يا أبي، ماذا تريد؟

- إنه من كنعان، انظري إليه، إنه يشبهنا في شبابنا..

- آه.. نعم.. ولكن جسمه يبدو رخواً.. ليس متين البنيان.. ماذا تحمل في معصمك، بوصلة صغيرة؟

- آه.. إنها ساعة لضبط الزمن.. أنا من زمن متقدم كثيراً عليكم..

- كيف؟ جذبك النفق إليه، ولم تعرف كيف تخرج..

- نعم.. هذا ما حصل..

- وقعنا جميعنا في الفخ أيها الشاب لا نستطيع الخلاص..

سألها عبد المنعم:

- تبدين شابة صغيرة، رغم السنوات الطويلة التي مرت عليك..

- أنا أمارس الرياضة، وأتقن الفروسية واستخدام السيف والرمح.. صحيح أن بعضاً يرفضون ذلك من المرأة.. ولكن الفينيقيين هم الأكثر ذكاء في تعاملهم مع الشعوب الأخرى..

فكر مذهولاً: «هل أنا في حلم؟ ما يجري أشبه بشيء لا يصدق.. ربما كان هؤلاء الناس من الأوهام التي تسيطر علينا»

همس له بيتر:

- ما بك يا سيدي؟ أنت تشرد بعيداً وتلك المرأة تحدثك..

- لا شيء.. أنا بخير، أفكر بطريقة للخروج من هنا..

وكأنما سمعته كولا فقالت مؤكدة:

- لا تحاول التفكير في الخروج، من جاء إلى هنا، سيظل هنا، ولم يصدق أن خرج أحد سليماً إلى المحيط العظيم..

هدأه الشيخ: - ستكون بخير يا بني لا تقلق..

ثم أكمل وهو يتفرس فيه:

- لولا وجود هؤلاء حولي، لمت منذ زمن بعيد.. إنهم يعزونني ويخلقون بي روح الحياة

- ولكن لماذا الرغبة في الحياة، وأنتم في مكان ضيق ومدينة خارج الزمن؟ كيف تقضون وقتكم وسط هذه القوقعة الضئيلة.

- أتسمع يا أحمد؟ لم يتعرف المكان جيداً بعد.. رافقه وكولا في جولة داخل الأنفاق المتشابكة.. هو ورفاقه..

ثم شد أحمد إليه وهو يهمس:

- أنا سعيد يا أحمد.. يبدو أن كولا أعجبت به.. هذه بادرة استثنائية

- فعلاً هذا مدهش يا يوسف، ليت كولا تحبه حتى تقبل الزواج به.. بمثل هذا الشاب الذي ينتمي إلى بلادنا، بعد كل هذا الانتظار الطويل..

اقترب يوسف من عبد المنعم:

- اسمع أيها الشاب، أنا متأكد أنك ستغير رأيك بعد أن تتعرف مدينتنا وأنفاقها العجيبة.. سيصطحبك أحمد إنه خبير بدروبها وأنفاقها..

- شكراً لك ياعم..

قال أحمد:

- تفضل يا بني.. ستكون كولا الجميلة بصحبتنا..

كانت أنيقة ساحرة بلباسها الفينيقي.. وهي تخطر إلى جانب عبد المنعم.. في رحلة كشف المدينة الغريبة..



- ٣ -

أنفاق متعددة كالشرايين في قلب الصخر، تصعد داخلها، أو تهبط تدور وتلتف، وفي القلب مدينة تستلقي على سفح دائري، في وسطه يتموج البحر.. وقد ظهرت أمواجه تحت الضوء بمنظر بديع خلاب.. من المستحيل التصديق بوجود مدينة بهذه الغرابة، ولكن عبد المنعم وبحارته تعرفوا أزقتها وطرقاتها وأنفاقها.. تعرفوا الأرصفة البحرية المليئة بالدوارات داخل الأنفاق، وتعرفوا عوالم تنتمي لأزمنة مختلفة، كان آخرها ذلك الزورق الذي دخل النفق بقيادته وبحارته..

زورق من زمن حديث، بين زوارق وسفن وبواخر من عصور يفصل بعضها عن بعض عشرات السنين، وأحياناً مئات السنين.. أمعقول أن تستوعب تلك الجزيرة الصخرية في المحيط الأطلسي مثل هذه العوالم؟

وكيف يمر الزمن ببطء، حتى لا يشعر المرء أن سنوات طويلة تمر عليه وهي في حسابه لا تتجاوز الأيام.. أناس من أرض

كنعان، من الفينيقيين الذين وصلت سفنهم القارة الجديدة، وضاعت إحداها في قلب بحر سارغاس..

وسفينة من سفن عرب الأندلس، الذين تعرفوا الأراضي الجديدة وهبطوا على شواطئها، ضاعت أيضاً، في ذلك البحر الغريب الذي يلتهم السفن ويخفيها لتعيش في عوالم مختلفة عن عالمنا.. وهو يدور ويعاين هذه المشاهد العجيبة..وقربه كولا ابنة الشام الفينيقية، والشيخ أحمد، بحار مالقة العربي، وبحارته الثلاثة المذهولون، كان عبد المنعم مشغولاً بالبحث عن حل..

الباخرة خارج الجبل، تثبتها السلاسل الحديدية بالمراسي الثقيلة، ومن عليها ينتظرون عودته، والعودة كما يرى ليست سهلة، وإنما مستحيلة في رأي بعض؟ هل سينجح في الخروج من هذه الدوائر الصعبة، والنفاذ إلى عالمه من جديد؟

وماذا سيفعل وكولا الجميلة تشده، وهي تريه غرائب المدينة، وعجائب أنفاقها؟ ألن يرى سعداً ثانية؟ وكيف سينجح (ديلاتوري) قبطان الباخرة في الخروج بباخرته بأمان، خارج التيارات العاصفة التي لا يقف أمامها شيء؟

لحظت كولا حيرته وقلقه:

- ما بك يا عبد المنعم؟ تبدو ذاهلاً شارداً.. أمعقول أن تستغرب ما تراه إلى هذا الحد؟

قال أحمد المالقي:

- اتركيه يا كولا.. لديه كل الحق في الدهشة، مررنا نحن بمثل حالته أيضاً.. كنت أقرص نفسي، أجرح يدي، أعض على أصابعي حتى أدميها، كي أشعر أنني لا أحلم، وأن ما أراه حقيقة..

أشفقت كولا عليه وهي تراه مذهولاً يتأمل ما حوله، فتركته لأحمد المالقي الذي ضمه إليه بعاطفة جياشة، سأله عبد المنعم:

- متأكد يا عم أن لا أحد خرج من هنا؟

- هذا ما أعرفه، ومتأكد منه يا بني.. منذ دخولي إلى هنا..

سأله بصوت منخفض:

- لماذا تبدو كولا صبية فتية، رغم أنها تسبق زمنك بقرون طويلة؟ وأنت تبدو كهلاً متقدماً في السن؟

- كولا كانت طفلة صغيرة، حين جرف التيار سفينة الكنعانيين إلى هنا، وهي لا تكبر سوى ببطء شديد.. بينما كنت في الخمسين من عمري، حين وصلنا إلى هنا..

- آه.. فهمت..

عادت كولا تنضم إليهم وهي تشير إلى مساحات من البيوت المتداخلة، قال المالقي موضحاً:

- نحن نقترب الآن من منطقة القراصنة، لم يكونوا بعيدين عن زمننا كثيراً، ما زالوا يمارسون ألعابهم ولهوهم..

- وما زالوا أشراراً؟

- لم يكونوا أشراراً، كانوا مغامرين يسطون على سفن الأباطيل الغنية التي تهاجم المرافئ والشواطئ وتستولي على المدن والأرض.. إنهم أناس لطيفون.. سترى ذلك جيداً..

وأحاطت بهم مجموعة من القراصنة، اقترب كبيرهم منهم مرحباً:

- أحمد.. صديقي.. منذ مدة لم أرك.. أهلاً بك بيننا..

- كيف حالك يا ديلما.. هذا هو عبد المنعم، من بلادي، قادم جديد..

رحب ديلما به وهو يتأمله وقد بدأت موسيقا إيقاعية العزف وهم يقتربون من الساحة قال ديلما:

- أهلاً بك في عالمنا.. كيف حالك يا كولا؟

- بخير يا عم ديلما.. أرى أنكم تقيمون احتفالاً..

- نعم.. زواج ابني، من ابنة (النمر)..

- وافق أخيراً؟

- كان يداعبني برفضه ليس إلا ، وهو الآن في غاية السعادة، انظري إليه كيف يعانق ابني..

كان مشهداً مؤثراً، وقد أحاطت الجموع بالعروسين وبدت الفرحة الغامرة على وجه ديلما الذي قال لكولا وهو يربت على كتفها :

- ليتنا نفرح بك ياكولا.. سأجعل أكبر فرقة رقص وموسيقا تشارك في عرسك..

قال المالقي شارحاً :

- ما زالت العادات على حالها ، لم يذهب منها سوى السيئ في عالمنا.. نحن لا نعرف الكذب ويتعامل بعضنا مع بعض بود وصراحة.. رغم اختلافنا في الجنسيات.. والعروق. عالم قائم على المحبة والتعاون..

شد ديلما إلى جانبه :

- اجلس إلى جانبي أيها الشاب، وأنت يا كولا.. سنبدأ الاحتفال ونعيد ذكريات الأيام الخوالي.. أضخم السفن الإنكليزية استسلمت لسفني السريعة، ولقنت جيش الملكة دروساً في الحرب البحرية..

- رغم أنهم وضعوا ثمناً باهظاً لرأسك يا ديلما؟

- ولكن حب الناس لي ضيع على الأنذال أن يقبضوا علي، ويدمروا مملكتي الصغيرة في ذلك الحين.. هيا.. ارقصوا غنوا.. افرحوا.. إنه عيد زواج ابني.. سيمتلئ البيت بالأحفاد قريباً..

ولكن الباخرة الساكنة تحت ضغط السلاسل والصواري بدأت تهتز قليلاً وقد تحركت الرياح والأمواج القوية، وتراكمت السحب السود في الجو.. وشيئاً فشيئاً، هاج البحر وهطل المطر مصحوباً بالبرق والرعد.. مما جعل الركاب يهرعون إلى قمراتهم.. والقبطان يمسك قلبه من الخوف أن تحطم الأمواج سلاسل المراسي الثقيلة..

- إنه شيء غير متوقع يا سعد..

- وماذا ستفعل ياسيدي؟

تنهد بحرقة:

- لا نستطيع أن نفعل شيئاً يا سعد.. إنها إرادة القدر أن نتعرض لهذا الامتحان الصعب.

- طلبنا من الركاب أن يبقوا في قمراتهم، ويربطوا الأحزمة بالمقاعد المثبتة..

- هذا أفضل.. وإن كنت خائفاً من انقطاع السلاسل.. إذا صمدت الباخرة أمام هذه العاصفة، قد نستطيع المقاومة، بعد عودة عبد المنعم ورفاقه..

قال سعد بحزن:

- لا أثر لهم حتى الآن، مر يوم كامل يا سيدي..

- لا نعرف ظروفهم، ولكني أثق بقدرة عبد المنعم على اجتياز الصعاب

- ربما تعرضوا لأخطار يا سيدي؟

- ليكن الله معهم..

أحب أن يغير الحديث فسأل سعد:

- هل حالة تلك العجوز وابنتها مطمئنة؟

- تحتاجان لمن يكون جانبهما دائماً.. الأم تعاني من تلبك معوي.. ربما بسبب ما مر بنا من اهتزازات وأخطار.. ربما كان السبب نفسياً..

- حاول أن تطمئنهما باستمرار.. كلما سنح لك الوقت..

- هذه أول مرة نمر بها بمثل هذه الأخطار..

- سيكون درساً لكما أنت وعبد المنعم.. درساً يعلمكما الكثير عن أخطار البحر ومفاجآته، وهدر الرعد مصحوباً بسلسلة من البروق ثم انقضت صاعقة على السفينة:

- أمعقول يا سيدي؟ حتى الصواعق قد لا نسلم منها..

- تأكد من موانع الصواعق، لقد استخدم الرجال بعضها لتثبيت سلاسل المراسي.. الموانع الباقية تكفي، ربما كان هناك سلسلة من الصواعق..

- سأفعل يا سيدي

فكر ديلاتوري بقلق «الله وحده يعلم ما قد يحدث لنا في الساعات القادمة»

☆ ☆ ☆

كانت عايدة وأمها في وضع نفسي سيئ والعاصفة تضرب جدران الباخرة مصحوبة بالرعود والصواعق أحياناً:

- إنها رحلة عذاب يا عايدة، اعتقدت أنها ستكون رحلة ترفيهية، ولكن المتاعب ازدادت كثيراً.. آه يا ابنتي الآلام تزداد في بطني..

- اهدئي وتشجعي يا أماه.. يجب أن نصبر.. سعد يقول: إنها ساعات قليلة ويعود الجو إلى صفائه..

- لولا هذا الشاب، للفنا اليأس القاتل والخوف.. كأن الله سبحانه وتعالى أرسله إلينا. نجدة.. نجدة من السماء.. هه.. أرى أنه يقترب من قلبك كثيراً، نظراته إليك نظرات عاشق متيم.. وأنت ألا تشعرين نحوه بشيء؟

- ماذا تقولين يا أمي؟ لم أنس مصيبتي بعد..

- (ولك) يجب أن تنسي، أنت شابة صغيرة ما زالت الحياة مفتوحة أمامك.. وإن كنت متأكدة من نظراتك أنه يشغل جزءاً من تفكيرك..

سمعا طرقاً على الباب وأتاهما صوت سعد، ففتحت له عايدة الباب.. في الوقت نفسه الذي اهتزت به الباخرة على صوت صاعقة جديدة، جعلتها تندفع إلى صدره خائفة فضمها بحنان.. قالت الأم:

- حتى الصواعق تنقض على باخرتنا يا بني؟

- لا تخافي يا خالة.. موانع الصواعق مثبتة في أمكنة حول الباخرة، لن يحدث شيء لنا

- إنها أقوى من العاصفة التي دفعتنا بعيداً عن الشواطئ..

- ولكننا سنصمد أمامها..

- أين عبد المنعم؟ لم يعد بعد؟

- ما زلنا ننتظر عودته، أعتقد أنه تأخر في الإبحار نتيجة هذه العاصفة القوية، إنه يقضي ليلته على اليابسة.. على الجزيرة الصخرية..

- إن شاء الله يعود بخير وسلامة.. إنه شاب لطيف، أشعر أنه مثل أخي حسن، في شكله ودماثته..

- اجلس على المقعد يا بني.. أنت تهتز متأرجحاً مع حركة الباخرة.. كدت تسقط..

جلس وربط نفسه بحزام الكرسي الإضافي إلى جانبهما.. كان رأسه قريباً منه رأس عايدة، وجد نفسه يهمس إليها بعبارات الحب دون أن يدري..

- خفت عليك والباخرة تتعرض للأعاصير والصواعق.. ليتني أبقى هنا لأزيل عنك الخوف والوحشة، أنت وأمك الطيبة.. آه.. ليتك تعرفين ما أشعره نحوك.. أنت.. أنت.

قالت مقاطعة:

- أعرف.. أعرف الكثير يا سعد

اهتزت الباخرة من جديد بشكل عنيف صرخت العجوز متألمة:

- ألا تستطيع إحضار الطبيب يا بني؟ أشعر بمغص شديد..

- عندما تهدأ العاصفة قليلاً، سأحضره يا خالة.. حاولي أن تتناولي المسكنات التي أحضرتها.. ستنامين بعمق؟

- وسط هذا الجو العاصف؟ لو تناولت عشر حبات لن أستطيع النوم

قال: - أعتقد أننا لن نعاني أكثر مما عانيناه..

وفجأة تمايلت الباخرة كأنها تتعرض لشد كبير من جانب واحد:

- ربما انقطعت بعض سلاسل المراسي، لا تقلقا.. يجب أن نذهب..

همست عايدة:

- عد إلينا سريعاً يا سعد.. لا نشعر بالأمان إلا بوجودك..

- سأحاول يا عايدة.. سأحاول..

وتعرضت الباخرة لهزات جديدة، وكثر خوف القبطان (ديلاتوري) من انقطاع السلاسل. والعاصفة في أوجها.. والتيارات البحرية لم تهدأ أيضاً في دفع الباخرة نحو الجزيرة. وفي قلب الجبل الصخري على الجزيرة، كان عبد المنعم يعيش مغامرة من نوع غريب، قد لا يصدقه العقل، في عالم أشبه بالحلم..



- ٤ -

- ما الذي يجري يا سيدي؟

- أعتقد أن شيئاً خطيراً سيحدث يا سعد.. الأمواج تزداد صخباً والعاصفة لم تهدأ، وبعض سلاسل المراسي بدأت تتقطع، أي إن الباخرة بعد مدة قد لا تكون طويلة، ستنجرف مع التيار، لتتحطم على الجزيرة الصخرية..

- ولا يمكن أن يتمكن عبد المنعم وبحارته من العودة وسط هذا الجو المضطرب..

- معك حق.. أشعر أن إرسالي له لم يكن له مبرر..

- وماذا سنفعل يا سيدي؟

- لا نستطيع أن نفعل شيئاً، سننتظر الفرج.. سننتظر حتى تهدأ العاصفة..

- وإذا استمر انقطاع السلاسل، ستجرفنا العاصفة صوب الصخور الناتئة..

- ستكون الكارثة مريعة عندها..

سمعوا أصواتاً أشبه بانفجارات صغيرة ولمح سعد أحد البحارة يتمايل مقترباً وهو يصيح:

- سيدي القبطان

- خير؟ ما الذي يجري؟

- بعض قمرات الركاب تكسرت أبوابها، وقذفت المقاعد المثبتة نتيجة شدة الاهتزاز إلى الخارج.. وهناك إصابات بين الركاب..

- ماذا تقول؟ كيف انكسرت المقاعد الحديدية المثبتة وهي مصممة لمواجهة مثل هذه الاهتزازات..

- لا أدري يا سيدي..

أشار ديلاتوري لسعد أن يهبط جهة قمرات الركاب:

- اذهب يا سعد واطمئن على المرأتين العربيتين وعلى الركاب الآخرين وحاول أن تصطحب معك بعض رجال الإنقاذ..

أكد البحار:

- رجال الإنقاذ ينتشرون بين القمرات.. وقد أسعفوا الركاب المصابين.. ليس عددهم كبيراً..

- اذهب يا سعد واطمئن على المرأتين..

- سأفعل يا سيدي..

غمغم ديلاتوري وهو يتابعه يتمايل مبتعداً:

- بدأ العد التنازلي للكارثة، يا إلهي أعنا..



وفي داخل الجزيرة تحت السطح كان عبد المنعم يتجول مع كولا بعد أن ودعا ديلما والشيخ أحمد، كان يشعر بانجذاب شديد نحو كولا، دون أن يقتنع أنها ليست حلماً، فالمدينة وسكانها لا يمكن أن تكون حقيقية، فكيف تستوعب مثل هذه المدينة التي تقع تحت الجبل الصخري، وفيها كل هذا الخليط العجيب من أناس ينتمون إلى أزمنة مختلفة..

أزمنة يعود بعضها إلى آلاف السنوات، وبعضها حديث يعود إلى زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهناك أيضاً عبد المنعم ورفاقه الذين ينتمون إلى زمن تسعينات القرن العشرين..

وكولا تشد يده بحنان، قفزت إلى ذهنه فكرة مفاجئة، أرعبته، لماذا لا يكون في برزخ الموت، وهؤلاء الناس الذين

ينتمون لأزمنة مختلفة ميتون، يعيشون في البرزخ في انتظار العبور إلى الجانب الآخر، حيث يتوقف الزمن بالنسبة إليهم في هذا المكان شديد الخصوصية..

أمعقول أن يكون ميتاً هو وبحارته؟ ولكن كيف؟ إنه يتذكر أن شيئاً لم يحدث له ولبحارته، والزورق تدفعه التيارات داخل النفق.. ولحظت كولا شروده ورعبه.. فربتت على كتفه بحنان:

- ما بك يا عبدو؟ أراك شارداً خائفاً؟

- أفكر في هذا المكان العجيب..

- ما زلت غير مصدق؟ هكذا كل من دخل إلى هنا، يعيش بعض الوقت في حيرة واضطراب، لا يصدق أنه يعيش فعلاً، وإنما هو يحلم..

- حتى الحلم لا يصدق يا كولا..

- ولكنك تحيا فعلاً في هذا الجو الغريب.. إنه جو حقيقي رغم أنه خارج حدود المنطق.. هذه الكهوف الغريبة والأنفاق التي تنتشر حول المدينة، فيها الكثير من الأسرار.

- أفكر كثيراً بالموت، أهؤلاء الناس الذين يتحركون حولي هم من الموتى؟

- تعتقدني ميتة؟ المس يدي، ضع يدك على قلبي ستشعر بالدفء.. ستسمع نبضات قلبي، الموتى قلوبهم هامدة، والبرودة تغلف أجسامهم ضع يدك هنا يا عبدو..

- آه يا كولا.. أشعر بحرارة أنفاسك ونبضات قلبك، فأشعر أنني غريق في حبك الذي كنت أعتبره حلماً خرافياً.. ولكن كيف يحدث هذا ببساطة؟ ولماذا لم يكتشف العالم ما يحدث هنا؟

- لأن من يدخل هنا، لا يمكن له أن يخرج.. مكتوب عليه أن يعيش هنا، ويموت هنا

- يموت؟ كيف؟ تعيشون أعماراً طويلة تقدر عندنا بمئات السنين وربما بآلاف السنين، وتموتون؟ كيف يحدث عندكم الموت؟

- الموت يا عبد المنعم يحدث عندنا، فجأة وبلا مقدمات، نحن لا نعرف المرض.. ولكن حين يتسلل الملل إلى أحد، ويصبح هو المسيطر فإن الموت يأتي فجأة..

- أهناك مقابر؟

البحر هو المقبرة الحقيقية، توضع التوابيت في التيارات المتغلغلة في أعماق النفق الضخم، فتجرفها التيارات بعيداً..

فكر مذهولاً: «تجرفها التيارات بعيداً؟ يعني تخرج من المدينة العجيبة؟ يا إلهي أيمكن أن أكون قد عثرت على الحل؟»

- عبدو.. حبيبي.. ما بك؟

- لا شيء يا كولا.. أنا أفكر..

- ارض بواقعك، تعش سعيداً.. الخروج من هنا مستحيل، ولا يخرج سوى الموتى..

أرجوك انتبه لنفسك.. يجب أن تستعيد توازنك.. وإلا زادت مدة قلقك ومتاعبك.. تعال معي لنذهب إلى بحيرة العشاق..

- بحيرة العشاق؟

- إنه مكان هادئ، يلتقي فيه العشاق الذين يقررون الحياة معاً وإنجاب الأولاد.. ما رأيك يا عبدو؟

- هيا يا كولا.. أتمنى أن أزور ذلك المكان.

☆ ☆ ☆

- ٥ -

وعلى الباخرة كانت العاصفة مستمرة، والباخرة تتأرجح من الأمواج العالية التي تضربها من كل جانب.. وقد بدأت السلاسل تنقطع من الاندفاع الكبير للتيارات والأمواج تجاه شاطئ الجزيرة..

اطمأن سعد على عايدة وأمها، كانتا ما تزالان في مقعديهما المثبتين بأرض الباخرة.. ولكن صراخ ركاب القمرات المجاورة وهلعهم والمقاعد التي تنخلع من أرض الباخرة، جعل ذلك الهلع ينتقل إليهما..

- آه يا بني.. يبدو أننا في طريق النهاية..

- لا تقلقي يا خالة ستكونين بخير، ستنحسر العاصفة بعد قليل مع شمس الصباح المشرقة

- أشعر كأن أحداً يضربني بعصا غليظة، وأنا أرتفع وأنخفض وجسمي مضعضع، أصيب بالرضوض في كل مكان (تبكي) وصيتي لك عايدة يا سعد.. إنها تميل إليك..

- عايدة في عيني يا خالة.. لا تقلقي، ولكن لا داعي للتشاؤم ستتخلص من هذا الخطر بإذن الله..

- وكيف؟ ومتى؟ بعد أن تحولنا العاصفة وارتجاج الباخرة إلى كتل محطمة من المستحيل أن تستعيد قواها..

- أرجوك يا أمي.. لا داعي لهذا اليأس.. سنكون بخير إن شاء الله

تنهدت بحرقة:

- أشعر أن نهايتي دنت يا عايدة، وأنني لن أصل إلى (الريو) وأرى أخاك (ياسر)

واهتزت الباخرة اهتزازاً عنيفاً فصرخت العجوز باكية:

- أرأيت يا بني، لن نصمد طويلاً.. سنموت..

- اتكلي على الله يا خالة.. كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله..

سألته عايدة:

- ألم يعد عبد المنعم بعد؟

- ربما منعته العاصفة الشديدة من التفكير بالإبحار إلينا.. إنه جو مضطرب غير صالح للإبحار..

- معك حق.. انتبه لنفسك يا سعد وأنت تنتقل من مكان إلى مكان، حركة الباخرة غير عادية، ، قد يحطمك ارتجاجها، انتبه لنفسك..

- لا تقلقي يا عزيزتي.. يجب أن أتابع جولتي الآن، وسأعود إليكما بالسرعة التي أستطيعها..

- كانت الأم ما تزال تبكي، قالت باستسلام:

- كما تشاء، في حفظ الله.. لا تنسنا يا بني، ليس لنا سواك..

- لن أتأخر يا خالة سأعود سريعاً لدي عمل أؤديه..

أجهشت:

- وصيتي لك عايدة يا سعد..

- هي في عيني يا خالة

شعر بالحزن، ود أن يظل معهما، وقد رأى انهيار العجوز ولهفة عايدة لاستبقائه.. ولكن عمله كان شديد الأهمية.. خرج سعد يتأمل رجال الإنقاذ وهم يخرجون الركاب المصابين وقد ازدادت أعدادهم، فشعر بالخوف على عايدة وأمها، وقد أثرت فيه كلمات العجوز وهي توصيه بابنتها.. كان الليل ما زال في ظلامه الشديد لا يوحي سوى بالكآبة..

والباخرة تتعرض لأعتى العواصف التي مرت عليها، و(ديلاتوري) شبه يائس من الخلاص. وليس في وسعه السيطرة على شيء.. حتى الأجهزة التي ركبت على الباخرة لتقيها اضطراب الطقس الفجائي، لم تنفع في مثل هذا الجو الغريب..

وشعر فجأة بأن الباخرة تتوقف عن الاهتزاز، والرياح تتوقف عن عصفها، والتيارات تتراجع، ليصمت صوت السلاسل التي تربك الباخرة بأمراسها الموزعة في كل اتجاه..

وصلت إليه من القيادة أضواء شديدة التوهج ازدادت حتى كادت تخطف الأبصار.. وشعر بأن شيئاً غير عادي يحصل للباخرة..

سمع أصوات البحارة والركاب، ولم يدر كيف دفعته قدماه لصعود الدرج اللولبي متوجهاً صوب سطح الباخرة..

رأى شيئاً لا يصدقه العقل.. وهج هائل من منطقة من السماء كان مسلطاً على الباخرة، تساءل بقلق عن هذا الوهج الذي يخطف الأبصار؟ من أين يأتي؟ وما هو مصدره.. كان ديلاتوري يصعد الدرجات إلى السطح، التقاه سعد بلهفة:

أترى يا سيدي؟ إنها أجسام مضيئة تتحرك فوقنا، تبث نحونا أنواراً متوهجة..

- يا إلهي.. إنها أجسام أشبه بالأطباق المستديرة تدور وتلتف، عددها كبير، ربما زاد على العشرة..

كانت العاصفة قد توقفت واستقرت أمواج البحر وبدت هذه الأجسام كأنها تقترب من الباخرة.. ثم هبط أحدها في اتجاه السطح، واستقر فوق ذلك المكان الخالي من سطح الباخرة، أنزل سلماً متحركاً.. وبدأ سعد يشعر بدوار في رأسه:

- آه.. هذا الوهج يكاد يؤثر على عيني، كأنني سأتخدر، سأقاوم هذا الشعور بقوة.. لم ينتبه إليه القبطان:

- سعد.. انظر.. كائنات غريبة شبيهة بنا تهبط من الجسم الطائر الغريب.. هل هي من كواكب أخرى فعلاً؟ آه ما بك؟ تبدو متوعكاً، كأنك تتعرض لآلام غريبة؟

- رأسي يدور يا سيدي..

- لا.. لا.. يا سعد، اصمد أرجوك.. انظر الفتاة وأمها، أقصد العربيتين تتحركان على السطح بين الركاب.. كأن الكائنات ستهبط قريباً منهما..

انطلقت من تلك الكائنات كلمات مفهومة واضحة:

- لا تخافوا.. لسنا ننوي إيذاءكم.. بالعكس، جئنا لنجدتكم..

- جئنا من أجلكم، رأينا باخرتكم المتخبطة وسط العاصفة والتيارات الجارفة..

- لم تعرفوا أي مصير كان ينتظركم..

صرخ ديلاتوري:

- نرجوكم، ساعدونا للابتعاد عن هنا.. للابتعاد عن هذا البحر الذي يتعرض لقوى غامضة.. أصابنا اليأس القاتل والعاصفة ما انفكت تصعر بنا، وتدفعنا التيارات صوب الصخور الشاطئية، حيث ينتظرنا المصير المجهول..

- ديلاتوري.. أنت قبطان ناجح.. نريدك أن تأتي معنا.. لا تخف نحن لا نعرف الأذى

- سآتي معكم وأتعرفكم وأقوم بما تريدون مني القيام به، ولكني أريد أن أطمئن عن الباخرة.. أطمئن عن سلامة ركابها وبحارتها.

- لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام..

همس ديلاتوري في أذن سعد:

- لا تضعف أرجوك ستتولى القيادة الآن.. حاول المقاومة أرجوك

همهم سعد:

- أنا بخير..

- الفتاة تنظر نحوك.. كأنها تنتظر عونك..

- حسناً يا سيدي..

بدأ يشعر أنه يستعيد قوته من جديد، كانت عايدة وأمها تقتربان منه ملهوفتين:

- سعد.. ماذا يجري؟ من هؤلاء الناس؟ لم أر مثل أشكالهم من قبل..

- إنهم من خارج أرضنا.. لم أر مثلهم أيضاً.. ولكن تقنيتهم متطورة كثيراً عنا.. أنا بخير.. كنت أشعر بالخدر قبل قليل.. ماذا يحدث؟ ألا ترين الضباب يا عايدة؟

- يا إلهي، إنه يزداد كثيراً، يغطي كل شيء.. أماه.. أعطني يدك..

صرخت الأم:

- ماذا يحدث يا ابنتي؟ ما هذا الدخان الأبيض؟ أشعر أن قوتي عادت إلي.. آه.. الدخان يغطي كل شيء.

- إنه ضباب غريب.. لا أرى ديلاتوري.. أين ذهب.. لا أرى تلك المركبات المجهولة، حتى الوهج انطفأ أيضاً..

- أنا خائفة يا سعد..

- لا تخافي يا حبيبتي.. أنا إلى جانبك.. آه أصبحنا نسبح في بحر من الضباب.. آه عايدة تمسكي بي.. ترى ما الذي يحدث حولنا؟ كأننا نطير بهدوء وسط الغيوم.. لا أسمع صوت موج البحر..

- كأننا ندخل في حلم لذيذ.. ضمني إليك يا سعد..

- تعالي يا حبيبتي.. أين والدتك..

- إنها تمسك بثوبي بقوة، لا تقلق عليها.. آه.. كأن خدراً خفيفاً يداعبني.. ولكني أشعر بالسعادة وأنت معي.. آه..

☆ ☆ ☆

- ٦ -

تابع عبد المنعم جولته مع كولا في تلك المدينة الغريبة، تعرف أحياءها، وأنفاقها وكهوفها الواسعة، رأى تجمعات الأحياء البحرية في بعض الممرات المدورة.. وهو في طريقه مع كولا إلى بحيرة العشاق كما سمتها..

كانت بعيدة خارج حدود المدينة، تقع على حافة جرف صخري تبدو مياه المحيط تحته.. كانت بحيرة صغيرة، تحيط بها أسوار مزخرفة تلتف حولها الأشن وسراخس البحر.. وفي داخلها زوارق صغيرة تتسع لشخصين، شاب وفتاة، أو رجل وامرأة، اختارت كولا زورقاً فارغاً ودعت عبد المنعم للدخول إليه، كان أشبه بحجرة مريحة مغطاة بقماش أرجواني، في داخلها وسائد وأرائك، وهناك فتحات مربعة، تطل على فتحات المدينة العالية المضيئة..

كان منظراً ساحراً، والضوء يتدفق كالشلال من الفتحات، بألوانه الزاهية.. شدته إليها وهي تهمهم بعبارات الحب.. فشعر

أن تلك الفينيقية الجميلة تدخله إلى عالم فريد أشبه بحلم جياش بالعاطفة.. رأى عينيها تبرقان لأول مرة.. وكان بريقاً ملؤه العشق..

لم يدر عبد المنعم كم مر عليه وهو مع كولا في بحيرة العشاق، ولكنه شعر أخيراً أن عليه أن يتفقد بحارته.. فهمس لكولا أن الوقت قد حان للذهاب إلى المدينة، فهو لا يعرف عن رجاله شيئاً، وقد تركهم في عرس ابنة القرصان (ديلما).

همهمت محتجة ولكنها نهضت بهدوء، وهو يتأملها بحب، لتفسح له الطريق خارج الزورق، سارا ملتصقين صوب المدينة، عبر دهليزاً قصيراً يختصر مسافة كبيرة، فبسرعة وجدا نفسيهما قرب منزل (ديلما) زعيم القراصنة حيث كان الناس يصخبون ويهزجون على أنغام موسيقا غريبة..

- ها هو العم (ديلما) سنسأله عن رجالك..

استقبلها ديلما بترحاب:

- هه.. كولا عزيزتي، متى سنفرح بك.. إنه شاب ممتاز أقرأ ذلك في وجهه وعينيه إنه يحبك.. أنت تحبينه..

- يريد أن يسألك عن رجاله.. تركهم هنا..

والتقاهما أحمد المالقي الذي كان يتفرج على الحفلة الصاخبة:

- عدت يا ابنتي؟ كيف حالك يا عبد المنعم؟

- بخير يا عم أحمد..

داعب عبد المنعم:

- «أعجبتك كولا؟ إنها تناسبك، وهي شامية من بلاد الشام.. أراها متعلقة بك»

اعترضت كولا:

- مابك يا عماه؟ أمعقول أن تحمل هم زواجي كل هذه الفترة؟

- أريد أن أرى أولادك قبل أن أموت يا كولا.. أشعر أنني لن أعيش طويلاً..

- لا تقل ذلك أرجوك.. أنت تتعسني بهذه العبارات..

قال ديلما ضاحكاً:

- لا تقلقي سيعيش ليرى أحفادك، إنه بحار والبحارة لا يموتون سريعاً..

حثت كولا عبد المنعم على البحث عن رجاله:

- هيا يا عبدو، ابحث عن رجالك، هيا بنا نبحث عنهم سوية..

- نعم يا كولا.. هيا بنا.. لن أتأخر يا عم (ديلما)

- أرجو لك التوفيق يا بني..

دخل عبد المنعم وكولا إلى داخل المكان، كان الرجال مضطجعين على أرائك وقربهم نسوة يمازحنهم وهم يشربون النبيذ وقد بدا عليهم السكر..

سألهم بغضب: - ماذا تفعلون هنا؟

أجاب أحدهم: - نحن نستمتع بوقتنا يا سيدي، هؤلاء النسوة رائعات..

تمايلت نحوه إحدى النسوة: - أنت بحار رائع، يبدو جسمك الفتي رخواً، وليس مثل البحارة الذين لوحتهم الشمس، ولكنك جميل أشبه بصبية صغيرة لم يشتد عودها بعد..

أجابها ضاحكاً: - وأنت مثل إلهة إغريقية فاتنة..

قال عبد المنعم لكولا: - إنهم ثملون يا كولا.. ماذا أفعل؟

هدأته: - ماذا تريد منهم؟ دعهم يمرحون ويتمتعون..

قال: - أنا أحتاجهم يا كولا.. يجب أن يخرج أحدنا من هنا..

- ماذا تقول؟ هذا مستحيل يا عبدو.. اطرح هذه الأفكار من ذهنك.. هي أفكار لا يمكن تحقيقها.. أرجوك.. سأغضب منك.. هيا نخرج ودع رجالك يمرحون..

أوقفها عند الباب:

- اهدئي يا كولا.. يجب أن أنفرد بهم، أن أتناقش معهم.. أرجوك اهدئي، أعطني قليلاً من الوقت فقط، سألحق بك.. انتظريني هنا يا حبيبتي

- حسن، اذهب إليهم، سأنتظرك..

دخل إليهم من جديد وأشار لمساعده:

- تعال يابيتر.. أريد أن أتكلم معك..

- ماذا يا سيدي؟ لن نستطيع الرحيل من هنا.. الجميع أكدوا ذلك..

- اسمع يا بيتر ليس هناك طريقة للخروج من هنا إلا مع الموتى..

- ماذا يا سيدي؟ ماذا تقول؟

- سألت كثيراً من الناس هنا، إنهم يلقون التوابيت في مكان ليحر فيهم التيار بعيداً، سوف نقذف أنفسنا مع التوابيت ونحن نرتدي ألبسة الغوص التي ما تزال في الزورق.

- متأكد من ذلك يا سيدي؟ ألا يشكل ذلك خطراً علينا؟

- يجب أن نخرج من هنا، إنها مدينة، الداخل إليها مفقود، ولم يسبق أن خرج منها أحد كما أكد الجميع.. ولا طريقة أمامنا سوى هذه الطريقة.

- كما تشاء يا سيدي، سنفعل ما تريده، هل أخبر الآخرين..

- رفيقاك؟ إنهما منشغلان مع الغجريات والسكر هدَّ قواهما.. لولا لباس الغوص الذي في حوزتنا ما فكرت في الخروج من هنا..

- على بركة الله يا سيدي..

صرخ أحد رجاله:

- تعال يا سيدي اشرب معنا.. وتمتع.. نساء جميلات جداً، أجمل ما صادفت في حياتي.

اتجهت إحدى الغجريات صوب عبد المنعم:

- إنه رئيسك؟ يبدو أكثر قوة منك.. تعال يا غزالي الصغير

- أنا آسف عليَّ الخروج من هنا..

- اشرب هذا الكأس فقط، ودعني أعانقك.. ستستسلم لي، لا تعاند هه.. اشرب. ما بك؟

- علي أن أؤدي أعمالاً مهمة، أنا لا أشرب..

قالت بدلال: - من أجلي؟ هه؟ أرجوك.. أنت أقوى من هذا الفتى الرخو..

همس بيتر: - دعك منها يا سيدي.. سأتكفل بها..

قال بحار آخر: - بيتر؟ هه.. لماذا لا تسمر معنا.. نحن نقضي وقتاً ممتعاً..

أجابه بيتر: - رفيقك الآخر تخدر ونام في حضن إحدى الحسناوات.. الرئيس يطلبنا يحتاجنا في عمل سريع.. وأنتما لا تستطيعان تلبية ندائه..

رد عليه باستخفاف وقد بدا عليه السكر:

- ماذا يريد منا؟ لا عمل له معنا.. انتهت علاقتنا الرسمية الآن.. نحن أحرار.. ونحن نسعد هنا مع هذه المتعة التي لا تنتهي.. مع السلامة يا بيتر اعتذر من معلمنا، عبد المنعم.. لم يعد له حق علينا..

خرج بيتر غاضباً ليلحق بعبد المنعم، الذي كان يقف أمام الباب مع كولا، عرفها به

- كولا.. إنه بيتر أحد رجالي

- سيرافقنا؟

- بعض الوقت فقط، ستتجه صوب المدخل الرئيسي للنفق الضخم، سأريك يا كولا الزورق الذي انجرفنا فيه إلى هنا..

- لا بد أنه يختلف عن كل الزوارق الأخرى..

- بالتأكيد.. الحمد لله، هذه الجولات عرفتني على الدهاليز والأنفاق جيداً، إنه النفق رقم (١)

- حيث ترسو سفينتنا الفينيقية.. التي كان يقودها يوسف الكنعاني سأعرفك بها.. توجه عبد المنعم وكولا وبيتر نحو النفق رقم (١)، قطعوا دهاليز طرق عديدة، ودخلوا وخرجوا من أنفاق تضيق أحياناً وتتسع، حتى وصلوا إلى النفق الضخم، حيث تتراصف السفن والبواخر والزوارق من كل شكل وزمن..

لم يضيعوا وقتاً طويلاً.. فقد عثر عبد المنعم على زورقه المطاطي، قرب إحدى البواخر التي تعود إلى الأربعينات، وكانت باخرة شحن متوسطة الحجم، دخل عبد المنعم وكولا

وبيتر الزورق المطاطي.. وفي أحد الصناديق المقفلة عثر عبد المنعم على ألبسة الغطس وأسطوانات الأوكسجين..

- كل شيء جاهز يا بيتر، كما تركناه..

- وماذا ستفعل الآن؟

- سنقفل الصندوق ونعيده إلى مكانه.. كل شيء آمن هنا كما يبدو

قالت كولا مؤكدة:

- نعم.. كل شيء آمن.. إنها مدينة أجبر القدر أهلها على التعايش بسلام فشكلوا مجتمعاً متماسكاً يحب بعضه بعضاً رغم كل التناقضات والفروقات.. إنه زورق عجيب زورقكم هذا.. يبدو خفيفاً جداً..

- نعم إنه خفيف وهذه الصناديق في قعره تعطيه ثقلاً وتوازناً..

- تعال سأعرفك بسفينتنا الفينيقية

همس بيتر:

- ماذا أفعل يا سيدي، هل أرافقك؟

- انتظريني في المكان الذي نمنا فيه أمس.. لن أتأخر..

- حسناً يا سيدي..

قالت كولا بعد ذهاب بيتر:

- هذا الرجل يحبك كثيراً يا عبد المنعم

- إنه أقرب البحارة إلي.. ترى ماذا حدث لباخرتنا الآن؟ هل ما زالت صامدة، أم جرفها التيار صوب الصخور لتتحطم وتغرق..

- أما زلت تفكر في أولئك الناس في الخارج؟

- لا أستطيع أن أنساهم بسهولة.. اسمعي يا كولا.. أشعر أنني منجذب إليك بقوة، ربما كان حبي لك من نوع غريب.. ألا تشعرين بمثل هذا الشعور؟

- المرأة تحب مرة واحدة يا عبدو.. أنت أول رجل في حياتي..

- أعرف ذلك.. ولن يفرقنا سوى الموت بعون الله..

أوقفته أمام سفينة قديمة:

- هذه هي سفينتنا الفينيقية (بيلا).. تعال سنصعد على سطحها..

كان مذهولاً بدقة صنعها وزخارفها ورسوماتها:

- يا إلهي، ما أجملها.. نقوشها فريدة يا كولا..

- هناك كنت ألعب ونحن نبحر في المحيط، وكان والدي يتركني أقود السفينة بعض الوقت، وهو يربط الدفة في اتجاه محدد، وكنت أعتقد أن العجلة تدور معي وأنا أحرك السفينة، حتى كشف لي أحد البحارة الشيوخ السر.. ولكن والدي أخذ يعلمني بجد كيفية السيطرة على السفينة وقيادتها.. حتى جرفنا التيار إلى هنا.. ما أزال أذكر طفولتي وحينا في (أنتردوس)، أذكر أمي وهي تصطحبني إلى معبد عشتار.. مع صويحباتها حيث نلتقي هناك بزوار من أماكن كثيرة، كنا نسعد كثيراً بالفرجة على الاحتفالات الدينية التي كان الكهنة يقيمونها..

فكر قلقاً وهو يتأمل ما حوله: «يا إلهي.. أمعقول ما يجري؟ أنا مع فتاة أحبها تنتمي إلى زمن سحيق تفصلني عنه سنوات طويلة قد تصل إلى (٢٥٠٠) سنة.. يبدو ذلك أشبه بحلم لا يصدق، يا إلهي..».

- مابك يا حبيبي، تبدو مهموماً؟

- أنا سعيد جداً يا كولا، لا تتصوري مدى سعادتي وأنت معي، أشعر أنني أحبك حباً يفوق الوصف..أرجوك أكملي

حديثك أنا سعيد جداً، وأنا أستمع إليك تروين حكايات من طفولتك وذكرياتك البعيدة..

- انظر هنا يا حبيبي.. هنا كان البحارة يجدفون بمجاذيفهم الطويلة حين نقترب من الجزر والمرافئ الصغيرة.. هذه هي الصواري التي كانت الأشرعة ترفرف عليها، وفوقها علمنا الفينيقي بألوانه الجميلة..

- كانوا صناعاً مهرة أجدادك يا كولا.. لا أكاد أصدق دقة هذه الزخارف والنقوش وجمالها..

تابع عبد المنعم وكولا جولتهما في السفينة الفينيقية القديمة، وهو يفكر بما سيفعله في الساعات القادمة، وكيف سيقنع كولا باصطحابه إلى المكان الذي تلقى فيه توابيت من يموتون من المدينة..



أما الباخرة التي كانت ترسو بسلاسلها المتينة، أمام شاطئ الجزيرة فبعد أن كثرت الأجسام المضيئة في الأجواء حولها، وانتشر الضباب يغطي كل شيء، شعر الجميع بحذر غريب، وكأن سعداً لمح، وهو يضم عايدة إليه، القبطان (ديلاتوري) وهو يطير مرتفعاً فوق أحد سلالم طبق طائر ضخم..

واستمر الإحساس بالحذر يعتري الجميع، حتى سقطوا في نوم عميق تخللته أحلام عن كائنات لطيفة زارتهم، وحملت بعضهم في رحلات طيران أشبه بالخيال، انطلقت الأجسام ببعضهم خارج الأرض، وهبطت على كوكب بعيد سكانه لطفاء متطورون، خلت أجواؤه من التلوث والغبار..

وخلت علاقات كائناته من الحقد والحسد والبغضاء، وسادت بينهم روح المحبة والتعاون والعمل الخلاق.. ولكن سعداً وعايدة عاشا حلماً من نوع آخر.. حلماً نقلهما إلى مدينة غريبة شوارعها واسعة، تحف بأرصفتها الأشجار والورود.. والعصافير المحلقة المسقسقة..

- سعد أين نحن؟ ما هذا الجو الغريب الذي نعيش فيه..

- كيف جئنا إلى هنا؟ لم أر هذه المدينة من قبل..

- يا إلهي ما أجمل هذه المناظر البديعة.. انظر هناك يا سعد.. بعض الناس يقتربون منا..

كانوا أناساً من مختلف الأعمار يتقدمهم كهل يرتدي لباساً أخضر وقربه عجوز بلباس أبيض قال الكهل:

- جئنا لاستقبالكما، نحن من لجنة الاستقبال..

وأشار إليهما:

- تفضلا.. سنصطحبكما إلى المركز.. سنطير إلى هناك..

نبههما الكهل:

- افتحا ذراعيكما هكذا والحقا بنا..

- ارتفع الكهل والعجوز يطيران محلقين قالت عايدة:

- ابق قريباً مني يا سعد..

- لا تخافي يا حبيبتي.. يا إلهي نحن نطير فعلاً.. كيف حدث هذا؟ ما أجمل الطيران.

- نحن نحلق فوق المدينة على ارتفاع عدة مئات من الأمتار، تبدو مدينة مرتبة..

قال الكهل:

- ستتجه من ناحية البحر، إنه بحر من المياه العذبة.. تكثر فيه الأسماك والحيوانات البحرية الأخرى..

شهقت كولا:

- إنه شاطئ مرسوم بدقة.. يا إلهي.. أرى بعض السفن والزوارق هناك..

صرخت العجوز:

- سنلحق بتلك الطيور البيضاء، هيا..

وأكمل الكهل:

- وسعا طيرانكما، افتحا ذراعيكما أكثر مما تفتحانها.. نعم.. هكذا..

- نحن ننطلق بسرعة الآن..

كانا يطيران مع مرافقيهما فوق المدينة ويتجهان صوب بناء له حديقة واسعة، بدا وكأنه مركز مهم في قلب المدينة، كانت الطيور تطير إلى جانبهم.. طيور مختلفة الأحجام.

- كأننا نحوم مثل هذه الطيور، نحن نتجه صوب الباحة الداخلية للمركز..

- إنه حلم غريب يا سعد..

- نعم يا عايدة.. ونحن فيه معاً..

قال الكهل:

- تفضلا لنهبط داخل الباحة الداخلية..

استقبلتهما مجموعة أخرى من الناس بلباس يجمع بين الأخضر والأبيض

- أهلاً بكما.. أنتما فوق الكوكب الأخضر.. إنه الكوكب الذي ذهب رفاقنا إليكم لتعرفكم وتعرف حضارتكم..

همست العجوز:

- إنه حكيم مجلسنا المركزي..

- ستتعرفان حضارتنا.. ونبلغكما رسالتنا إلى كائناتكم في كوكبكم الأزرق.. ستكون رحلة مكثفة، يجب أن تزورا أهم معالم كوكبنا.. هذا هو متحفنا التاريخي، فيه كل ذاكرتنا المخزونة عن حضاراتنا المتعاقبة.. تأملا ما في هذا المتحف، ستذهلكما آثارنا المعمارية، والفن العبقري الذي تمتع به أجدادنا..

همست عايدة:

- هنا تتداخل العوالم يا سعد.. ألا تذكرك هذه الآثار بآثار بلادنا؟

- نعم.. نعم.. كأنها آثار فينيقية.. أمعقول؟

وضح الكهل:

- كان الفينيقيون أصدقاءنا، زرناهم كثيراً وزارنا بعض معماريهم..

- معقول؟ شيء لا يصدق..

- هذا قسم اللغات الحية في الكون، تأملا جيداً..

- أرى أحرفاً عربية أيضاً..

- لغتكما عريقة، يا سعد.. انظرا هناك ماذا تريان؟

- إنها امرأة..

- اقتربا منها، ستريان مستقبلكما..

- يا إلهي، ماذا تقول؟

همست عايدة:

- أنا خائفة يا سعد

- من المستقبل؟

- نعم.. أمسك يدي، لأشعر بالأمان..

- لا تخافي يا حبيبتي..

ورأى سعد وعايدة نفسيهما متقدمين في السن وحولهما الأولاد والأحفاد في جزيرة صغيرة، وهما يقفان مع الأولاد والأحفاد أمام باخرة ضخمة يتأملان كهلاً آخر، بلحية بيضاء.. لم يستطع سعد أن يتعرفه..

كان يبدو عليه الحزن وهو يلوح لهما بيديه، والباخرة تهتز في المرفأ.. وهما والجمع المحيط بهما فوق زورق يستقبلان الباخرة الداخلة إلى الميناء..

واستمر الحلم.. وزار سعد وعايدة، مناطق عديدة من الكوكب وعرفا شيئاً من تاريخه، وقد بدأت نهضته الصناعية بالدخان الملوث والضباب والعربات التي تطلق عوادمها الأبخرة السامة..

فاجتمع العلماء والباحثون للبحث في إنقاذ الكوكب من خطر فوضى استخدام العلم، واخترعوا منقيات خاصة للمصانع، ولعوادم السيارات، كما وصفوا مركبات كيماوية فككوا بوساطتها السموم من السوائل.. وانتشرت المحطات الطائرة تمتص الإشعاع في عمليات مستمرة، حتى عاد الكوكب إلى طبيعته، وتحولت التقنية الصناعية إلى تقنية لا تعرف التلوث..

كما ساد جو الكوكب تعاونٌ بناءٌ بين سكانه، لم يعرف الحقد والشر، فتحولت حضارته المتطورة إلى حضارة خيرة خلاقة.. واستمر الحلم الوردي لسعد وَعايدة.. وهما يتجولان في الكوكب الأخضر.



أما عبد المنعم وكولا.. فتابعا تجوالهما بين السفن القديمة. وعبد المنعم منشغل البال يفكر بما سيفعله ورجاله في محاولات الخروج من المدينة العجيبة..

وحين تذكر كولا، شعر بغصة مخنوقة.. ولم يدر كيف تتابعت الكلمات من فمه..

- كولا.. اسمعيني جيداً..

- خير يا حبيبي ماذا تريد؟

- سأبوح لك بشيء، ولكن قبل ذلك عديني بأن تستمعي لما أقوله وتفكري جيداً به.. إنها رغبتي.. وأرجو ألا ترفضيها..

- لم أفهم شيئاً..ماذا تريد أن تقول؟

- لن أبقى في هذه المدينة يا حبيبتي.. وسأصطحبك معي خارج عالمها..

- كيف؟ ماذا تقول؟ ليس هناك أي منفذ..

- اسمعي يا حبيبتي، أتتذكرين تلك الصناديق التي فتحتها في زورقنا المطاطي؟

- نعم.. رأيت فيها أشياء عجيبة..

- فيها لباس للغطس لكل من بحارتي الثلاثة وأنا، إضافة للباس آخر احتياطي..

- لم أفهم ماذا تعني بلباس الغطس؟

- إنه لباس يمكننا أن نغطس فيه للأعماق بسهولة، دون أن يصيبنا الأذى..

قالت بدهشة:

- ماذا يا عبد المنعم؟ ما تقوله أشبه بالمستحيل..

- سأريك ما يفعله ذلك اللباس، وسأدربك على ارتدائه

- وماذا تنوي أن تفعل؟

- سأخرج من المدينة وأنت معي بهذا اللباس..

- معقول؟ لا يمكن لأحد أن يخرج من هنا..

- أرجوك يا كولا.. ساعديني في رغبتي، وسترين فعالية ذلك اللباس..

- ومن أين ستخرج؟

- من أين سنخرج؟ لأنني لن أخرج وحدي.. سيكون خروجنا من منطقة إلقاء توابيت الموتى..

- إنها منطقة خطرة يا عبدو.. تياراتها متلاطمة..

- لا بد أن لها نهاية قد تقذفنا بعيداً.. ونخرج من هنا إلى الأبد..

- لم أفهم بعد سر ذلك اللباس..

- تعالي معي.. سأجربه أمامك وأعلمك كيف تجربينه دون أن ينتبه لنا أحد.. تعالي يا حبيبتي..

تنهدت بحب:

- أنا معك حتى آخر العمر..

☆ ☆ ☆

- ٨ -

أحدث اختفاء الباخرة الإيطالية بقيادة (ديلاتوري) ضجة إعلامية كبيرة، وخرجت السفن والطائرات تفتش عنها في مناطق واسعة في محاولة لإيجاد أثر لها..

وعادت إلى الأذهان حكايات مثلث الموت التي تناقلتها الكتابات منذ زمن بعيد.. أما الباخرة نفسها فظهرت فجأة بعد أربعين يوماً أمام الشاطئ البرازيلي على بعد (٢٠٠كم) إلى الشمال من (رودي جانيرو). وكان على متنها كافة ركابها.. ولكن الطاقم كان ناقصاً.. فلم يكن هناك مساعد القبطان عبد المنعم وثلاثة من البحارة.. أما الباقون فكانوا بصحة جيدة.. وبالطبع لم يعرف أحد كيف حدثت تلك النقلة حتى أن (ديلاتوري) وسعداً وبعض البحارة الآخرين، استغربوا أن يروا الباخرة في هذا الموقع..

وقد تذكروا أحلاماً أشبه بخيالات مجنحة عن أطباق طائرة وأضواء كاشفة، وكائنات أشبه بالبشر، تدور حولهم وتحاكيهم

وتساعدهم في الخلاص من التيارات التي تدفع الباخرة نحو الجبل الصخري، وقد تقطعت سلاسل مراسيها شيئاً فشيئاً.. قال القبطان العجوز شارداً:

- كأننا كنا نحلم يا سعد..

- نعم يا سيدي.. ولكنه حلم دفعنا نحو واقع غير مفهوم..

- لا أستطيع حصر المكالمات التي تدفقت إلينا عبر اللاسلكي أعتقد أن زواراً كثيرين وصحافيين سيأتون إلينا سريعاً.. الساعات القادمة ستكون متعبة لنا..

- وعبد المنعم يا سيدي؟ لم يظهر أبداً.. هل يعني أنا فقدناه إلى الأبد؟ ألا يمكن أن نحاول البحث عنه، والعثور عليه؟

- إنه عمل صعب يا سعد، لن أنسى عبد المنعم أبداً، سأحاول جهدي البحث عنه بكافة الوسائل..

هرعت عايدة ملهوفة وقد بدا الحزن عليها:

- أمي ليست في وضع طبيعي، إنها تهذي يا سعد..

- أتسمح لي يا سيدي بمعاينتها؟

- لا بأس.. إن احتاجت طبيباً... اصطحب أطباء الباخرة للكشف عن حالتها ..

- سأفعل يا سيدي..

- لم تتحمل ما مر بنا من مصاعب.. حالتها سيئة جداً يا سعد.. أخاف أن أفقدها؟

- لا تقلقي يا حبيبتي ستكون بخير..

كانت العجوز ممددة وقد بدا عليها التعب، كانت تحدق بالفراغ بعينين:

- «أراهم داخل الصخر، في منطقة ليس لها سماء.. كأنهم داخل الأرض.. مسكين يا بني، تبحث عن طريق للخروج.. وقلبك معلق بالصبية».

- ماذا تقولين يا خالة؟ عن أي شيء تتحدثين؟

- «آه.. لا يبدو الأمر سهلاً.. ورغم ذلك أنت لا تشعر باليأس، يجب أن تنجح في الخروج.. آه.. يا بني أنت وحيد مثلي.. ولكني يائسة وأنت عنيد صلب».

أجهشت عايدة:

- كأنما تحاكي شخصاً تراه..

- «بحر.. بحر في كل مكان، وليس سوى صخرة هائلة تجثم فوقكم.. مساكين ما يجري تحت ليس عادياً.. تتعايش الأزمنة بعضها مع بعض، وتتداخل العوالم تداخلاً فريداً».

- أماه.. أتى سعد.. تحدثي إلينا أرجوك..

- «آه.. طفولتي لم تكن سعيدة، وترمل ابنتي كان حادثاً قصم ظهري كيف سترمم حياتها ابنتي.. أريد الجواب يا سيدي.. من فضلك أريد أن أطمئن عنها».

- ما زالت تحاكي أشخاصاً كأنها تراهم..

بكت عايدة:

- أنا خائفة عليها.. إنها لا ترانا ولا تشعر بوجودنا..

- هدئي نفسك.. يجب أن أحضر طبيباً له علاقة بمثل هذه الحالات

- أرجوك يا سعد.. قد نعيدها إلى عالمنا..

- إن شاء الله..



بعد جهد كبير تمكن عبد المنعم، من إقناع كولا بالنزول بلباس الغطس بصحبته، وقد استطاع أن يقوم بتدريبها سريعاً، ووجدت أن اللباس يحقق لها الأمان الكامل بأسطوانتي الأوكسجين اللتين تتنفس منهما في الأعماق..

وأحس عبد المنعم بالارتياح، وهو يراها تندفع معه في مغامرة لا يعلم سوى الله سبحانه وتعالى متى ستنتهي..

- هيا يا حبيبتي، لنضع اللباسين في الصندوق ونقفله بإحكام من جديد

- إلى أين تريد الذهاب الآن؟

- أريد أن أرى بيتر مساعدي.. والرجلين الآخرين.. سأعمل على إقناع الجميع، بالمغامرة في السباحة ضمن تيارات النفق الكبير عسى أن تجرفنا التيارات إلى عرض المحيط لنخرج من هذه المدينة العجيبة إلى الأبد..

- سأبقى معك إلى النهاية يا حبيبي.. افعل ما تشاء..

- سأوصلك إلى البيت، وأذهب للقاء بيتر عسى أن أعود إليك بعدها..

قالت وهي تتنهد:

- أنا مشفقة على والدي، ولكني لا أستطيع منع نفسي من الانجراف معك حتى النهاية..

- والدك متقدم كثيراً في السن..

- وهو بحاجة للرعاية إذن.. من سيرعاه في غيابي؟

- مجتمع المدينة متعاون يحب بعضه بعضاً، لن يبخلوا عليه بالعون..

معك حق.. ولكن كيف سأودعه إلى الأبد؟ هل أستطيع تحمل تلك اللحظة؟

- إن شاء الله يا كولا.. من أجل غد أفضل مع العالم الحقيقي خارج هذه المدينة العجيبة

- كما تشاء يا عبدو لن أتركك ترحل دوني..

والتقى عبد المنعم وبيتر بالبحارين الآخرين.. كانا سعيدين مع الغجريات اللواتي يعملن في (الصالة) مع (ديلما)..

وقد حاول عبد المنعم، إعادتهما إلى صوابهما، وهما ينامان متعبين من الخمرة الزائدة التي تناولاها، بصحبة الفتيات الراقصات.. دون نتيجة، فصمم وبيتر أن يعيدا المحاولة من جديد بعد أن يستيقظ الجميع من الخدر الذي أصابهم في صالة (ديلما) المفتوحة على المتعة دون حساب.. كان بيتر مقتنعاً بالحل الذي اقترحه عبد المنعم.. وقد رأى حماسه ولكن كان مستغرباً أن تشارك (كولا) بالرحلة..

- دربتها جيداً يا بيتر لا تقلق..

- ولماذا الإصرار على اصطحابها يا سيدي؟

- لأنها المرأة التي أحببتها حقيقة، والتي لا يمكن أن أذهب إلا وهي بصحبتي، هي كل عالمي يا بيتر..

- فهمت يا سيدي.. هل أنت واثق من الوصول إلى نتيجة إيجابية وراء قذف أنفسنا مع التيارات بين توابيت الموتى؟

- أعتقد ذلك.. ثم لا حل آخر أمامنا..

- معك حق، لا حل آخر أمامنا..

كانت الباخرة التي ظهرت فجأة بعد اختفائها الغريب، قد شدت اهتمام أناس وسائل الإعلام الذين تدفقوا صوبها بالزوارق والطائرات المروحية، قال القبطان لأحد بحارته، وهو يشعر بارتباك أمام هذا السيل من الصحافيين والإعلاميين..

- أحتاج لسعد.. ليعاونني في الرد على أسئلة واستفسار الناس..

- هل أذهب لإحضاره؟

- نعم.. أريده ألا يتأخر..

وجد نفسه أمام عدسة إحدى كاميرات التصوير:

- سيدي القبطان.. نحن من تلفاز (الغد) نريد إجراء لقاء سريع معك..

- حول ما جرى لنا.. نحن لا نعرف عن هذا الكثير..

- سيداتي وسادتي، يسرنا أن نلتقي بقبطان الباخرة التي اختفت في برمودا وظهرت في مكان آخر يبعد آلاف الأميال.. أهلاً بك يا سيدي القبطان..

- أهلاً بك يا آنسة..

- كيف تفسر لنا اختفاءكم وظهوركم بعد نحو (٤٠) يوماً..

- ما أذكره أشبه بحلم لا يصدق.. كائنات من عالم آخر، من كوكب آخر في الفضاء البعيد، ساعدتنا في شدنا بعكس التيارات الجارفة وفي تقديم المساعدة الصحية والطبية والطعام، ودفع الباخرة في الاتجاه الصحيح..

- كائنات من عالم آخر؟ كائنات الأطباق الطائرة؟ هل رأيت تلك الكائنات يا سيدي؟

- نعم وتحادثت معهم.. إنهم لطفاء، من كوكب بعيد، يعيش سكانه حياة متعاونة، لا يعرفون الشر وصناعتهم غير ملوثة.. وتسود هناك العدالة بقيمها الحقيقية..

- ما تقوله يا سيدي يبدو غريباً.. أتعتقد أن مثلث برمودا يحوي أطباقاً طائرة تعود لكائنات عاقلة؟

- لقد رأيت هذا بنفسي يا آنسة..

- إنه حادث طريف، ربما دخل فيه الخيال، وشطح أكثر من اللازم..

انتفض غاضباً:

- أنا أقول الحقيقة، إن لم تصدقي ما أقول سأنهي المقابلة وأصرفك من هنا.. لا أريد رؤية وجهك..

- أنا آسفة يا سيدي.. ولكن الأمر يبدو صعب التصديق؟

- نحن أيضاً مستغربون لحدوثه ولكنه حقيقة..

- أتملكون أدلة أو إثباتات على مساعدة كائنات العوالم الأخرى لكم؟

- مع الأسف لا..

- ذكرتم في تقاريركم أنكم فقدتم أربعة بحارة، كيف حدث ذلك؟

- كنا في ورطة حقيقية، وقد أرسلت مساعدي وهو شاب

عربي شجاع في البحث عن مخرج من تلك الورطة، فذهب مع ثلاثة من البحارة ولم يعودوا، ربما لعدم توفر سبل العودة من تلك الجزيرة الغامضة.

- حدثنا عن تلك الجزيرة..

- أنا متعب يا آنسة لا داعي لهذا الإلحاح المستمر علي بالأسئلة المرهقة الصعبة..

- أنا آسفة.. الناس متشوقون لسماع المزيد من تفاصيل الاختفاء في بحر سارغاس، ثم الظهور هنا..

- سيتابع مساعدي حين يعود الكلام.. أرجو أن تأذني لي، هناك عمل هام يجب أن أؤديه..

☆ ☆ ☆

- ٩ -

أيقن الطبيب الذي عاين أم عايدة أن شيئاً خطيراً يحدث للعجوز، وأن مرحلة الهذيان التي تعيشها هي حالة نادرة من الشفافية التي تحصل في مرحلة الغيبوبة قبل أن يبدأ العد التنازلي للاحتضار والموت..

وبدأ يستمع لما تقوله، وهو متيقن أنها في عالم آخر، عالم حقيقي خارج دائرة الزمن..

- «آه يا بني.. ما زلت حائراً لا تدري ما تفعل.. ستخرج وهي بصحبتك.. وسيخرج معك ذلك الرجل الذي يحبك كثيراً.. آه لا أستطيع أن أرى ما يحدث لك، سيكون صعباً مرهقاً.. آه يا بني.. كان الله في عونك».

- تتكلم عمَّن يا دكتور؟ كأنها تحادث شخصاً تراه على الطبيعة

- هي ليست هنا.. إنها منفصلة عن عالمها هنا.

- وكيف يحدث ذلك؟

- والدتك في وضع سيئ يا سيدتي..

- حالتها خطيرة؟ قل لي يا دكتور أرجوك؟

- مع الأسف لن تعيش سوى ساعات، إنها تحاكي أناساً من عوالم غير معروفة لنا.. ولكنهم موجودون، في مكان ما..

- وكيف وصلت إليهم؟

- في الساعات الأخيرة للإنسان، تشف روحه كثيراً، وربما انتقل إلى أمكنة بعيدة أو أزمنة مختلفة موغلة في المستقبل أو في الماضي أيضاً..

- غريب.. انظر إلى عينيها إنهما تتقدان كالجمر..

- «أرجوك يا بني لا تتردد في القفز.. ولكن لا تلح على تلك الفتاة، لن أستطيع رؤيتها تتعذب بالحيرة والاختيار بينك وبين والدها».

- ما أعجب ما تقوله..

- «هي من عوالم لم يعرف سوى معابد الآلهة، وأنت من عالم عرف التوحيد وأنت متقدم عليها وعلى زمنها في التطور والمعرفة.. وهي رغم ذكائها قد لا تستطيع استيعاب ما يحدث الآن في العالم الخارجي».

- ألا ترى إنها تتكلم على شخص قريب منها يمر بمشكلة، ليتني أعرف من سيكون ذلك الشخص، ربما تتكلم على أخيك يا عايدة؟

- لا.. يا سعد.. تتكلم على إنسان آخر.. إنسان كان قريباً منها..

- «آه يا عبدو.. لم تر سوى القليل من العذاب بعد»

قال مذهولاً:

- أتتحدث عن عبد المنعم؟ كيف؟ أنا لا أفهم شيئاً.. أيمكن أن يكون ما تقوله صحيحاً يا دكتور؟

- بالتأكيد..

- ولكن كيف؟ أيمكن أن يكون عبد المنعم قد تعرف على فتاة من قبيلة بدائية يقدسون الآلهة، ويفكر باصطحابها من الجزيرة إلى عالمه؟ إنه تبرير معقول..

- إذا كان ما تقوله صحيحاً فتفسيرك يبدو منطقياً يا سعد.. ويلي عليك يا أمي وأنت تنحدرين نحو الموت..

وأجهشت بالبكاء دون أن تتمكن من كبح جماح دموعها، ضمها سعد إليه برفق:

- هدئي من روعك يا عايدة أرجوك..

- إنها أمي يا سعد.. وهي تنحدر نحو الموت..

- لا راد لقضاء الله.. دعينا نستمع إلى كلماتها..

- حسناً يا سعد.. قد نعرف المزيد عن عبد المنعم، إذا كان هو المقصود

- أهناك أحد من أقربائك تناديه والدتك بـ (عبدو)..

- لا.. حسب ما أعلم..

- ما زالت تنظر شاردة في البعيد وعيناها تتقدان كالجمر..

- «آه، رأسي يؤلمني.. لم أعد أرى شيئاً.. أين أنا؟ لا.. لا..»

- أماه أنت معي..

وكأنها استيقظت فجأة:

- عايدة.. ابنتي.. أنا لا أرى شيئاً، رأسي يؤلمني، يكاد ينفجر..

قال الطبيب:

- تمددي هنا يا خالة، ساعدني في وضع الأربطة حول رأسها يا سعد..

- نعم يا دكتور.. خير؟ ماذا تريد أن تفعل؟

- أجري تخطيطاً بدماغها..

كانت تتأوه:

- ماذا يحدث، الدنيا تدور بي.. لا أرى شيئاً، كأنني أسقط في هاوية سحيقة.. آه..

همهم الطبيب مذهولاً:

- ما هذه الذبذبات الكبيرة؟ غير معقول..

- إنها تتشنج، أمي.. أمي..

وخلال دقائق أسلمت أم عايدة الروح.. وسط صراخ الصبية ونحيبها.. وسعد يحاول تهدئتها.. دون جدوى، وهذا ما جعل الطبيب يعطيها حقنة مهدئة نامت على أثرها..

حزن (ديلاتوري) على فقدانه أحد الركاب بهذه الطريقة، وقد أكد له الطبيب أن العجوز ماتت نتيجة لعدم تحملها المصاعب المتتالية التي مرت بها الباخرة.. وأشفق (ديلاتوري) على الفتاة التي أصبحت وحيدة وأوصى سعداً بها، والباخرة تقترب من المرفأ البرازيلي. وقد كثرت الزوارق المحيطة بها، والحوامات التي تحمل الصحافيين الذين أتوا يغطون حادثة ظهورها الغريب بعد اختفائها في مثلث برمودا..

وفي داخل المدينة الصخرية، كان عبد المنعم يبحث مع بيتر عملية الخروج عن طريق التيارات الهائلة وسط النفق الذي تلقى فيه توابيت موتى المدينة..

- يجب أن نقابلهما وهما في وعيهما.. لا بد من إقناعهما بالرحيل معنا..

- بل يجب إجبارهما على ذلك يا بيتر.. لا خيار أمامهما سوى الرحيل عن هنا.. يعلم الله كم تعاني باخرتنا الآن.. إنهم ينتظرون مجيئنا.. وربما لم تصمد المراسي كثيراً..

- ألا تشعر بالنعاس، كاد الصباح أن يتغلغل بين ثنايا الصخور..

- يجب أن أنهي هذه المسألة بسرعة.. لنذهب إليهما الآن ونحاول إيقاظهما والحديث معهما..

- كما تشاء يا سيدي.. لنذهب..

☆ ☆ ☆

كانت كولا تعاني من الحزن الشديد وهي تتقلب في فراشها.. وهي تفكر بوالدها العجوز.. ويبدو أن (يوسف) الكنعاني أحس بقلقها.. وسمع آهاتها القلقة..

- ما بك يا كولا؟ ما الذي يحدث لك؟

- أبي؟ استيقظت باكراً..

- شعرت بحركتك، وسمعت آهاتك.. خير يا ابنتي؟

- لا شيء.. إنه أمر خاص يشغلني..

- أتخفين عني سراً؟ هه.. يريد ذلك الشاب الزواج بك؟ أنا موافق.. إنه شاب رائع كما أكد لي الجميع.. هذا ما كنت أنتظره..

- ولكن يا أبي.. كيف سأتركك وحيداً؟

- نحن نعيش في مدينة واحدة، سأراك وترينني يومياً، لن أشعر ببعادك، بل يمكنك العيش هنا مع زوجك في بيتنا القديم هذا..

انفجرت تبكي:

- آه يا أبي.. أنا سعيدة بموافقتك؟

- أيتها المسكينة.. أتظنين أنني أرفض مثل هذ الزواج؟ إنها أول مرة أشعر أنك تحبين فيها شخصاً، وتتعلقين به لهذه الدرجة.. كيف لي أن أرفض؟

فكرت متألمة:

«رحيلي مع عبد المنعم سيقضي عليه.. ماذا أفعل؟ أمن الضروري أن تفكر بالرحيل عن هنا يا عبدو؟»

☆ ☆ ☆

وصل عبد المنعم وبيتر إلى صالة (ديلما)، كان البحاران نائمين.. وإلى جانبهما.. رقدت غجريتان.. كان من الواضح أنهما مخموران، وهذا ما جعل عبد المنعم وبيتر يرشان وجهيهما بالماء في محاولة لإيقاظهما.. سألهما ديلما:

- ماذا تفعلان؟

- يجب أن يستيقظا، أحتاجهما يا ديلما..

- أمامك وقت طويل، قد يستيقظان بعد ساعات، لم العجلة؟ أئلى هذه الدرجة تحتاجهما؟

- نعم.. ألق بعض الماء مرة أخرى يا بيتر..

- استيقظ أحدهما:

- آه.. لا.. لا.. ماذا هناك؟ آه سيدي عبد المنعم..

- انهض وضع رأسك في الماء البارد لتستيقظ جيداً..

- آه.. ما الذي يجري؟ ماذا تريد يا سيدي؟

- اذهب مع رفيقك وضعا رأسيكما في الماء البارد، أريدكما حالاً..

- حاضر يا سيدي..

سأله بيتر:

- أتعتقد أنهما سيوافقان؟

- لا خيار أمامهما..

سأله ديلما:

- هل أجهز لكم مكاناً منزوياً أيها الشاب؟ لن يستطيعا السير طويلاً..

- كما تشاء يا ديلما..

جاء أحدهما:

- ماذا تريد يا سيدي؟

- لنتبع ديلما ونرى أين سيضعنا؟ سننزوي في المكان الذي يختاره لتبادل الحديث.. إنه حديث شديد الأهمية.. الحق ورفيقك بي..

- كما تشاء يا سيدي..

كان المكان صالة ضيقة فيها بعض المقاعد المريحة.. وما لبث البحاران أن قدما إلى الصالة. قال ديلما:

- سأترككم الآن.. هل أحضر لكم بعض الشراب..

- شكراً لك لا نريد شيئاً..

- حسناً.. خذوا راحتكم.. لا أحد يسمع كلمة من حديثكم هنا.. بإذنكم؟

قال عبد المنعم بعد أن ابتعد ديلما:

- اسمعاني جيداً، سنرحل عن هذه المدينة..

- وكيف يا سيدي؟

- سأشرح لكما الموضوع.. لا أريد أن تطلعا أحداً على السر في منتصف النهار أي بعد ساعات قليلة سنلقي أنفسنا ونحن نرتدي ألبسة الغوص، في نفق التيارات القوية.. حيث يلقي سكان المدينة توابيت موتاهم..

- ماذا يا سيدي؟ هل نحن مجبران على فعل هذا؟ ألا نستطيع البقاء هنا؟ أرجوك يا سيدي نحن سعيدان بوجودنا وسط هذا الجو، حيث المتعة بلا حساب.. لماذا المغامرة بالغطس في مكان قد تقتلنا فيه التيارات..

- إنه مكان خطر، حكى الجميع عنه وعن شدة تياراته البحرية..

- إنه أمر، وأنتما مجبران على تنفيذه..

تذمرا:

- ولكن..

- لا خيار أمامكما..

تم تحديد ساعة الاجتماع الأخير، للاستعداد للغوص في تيارات نفق الموت.. كما يسميه سكان المدينة..

وكانت (كولا) تعاني من تفكيرها القلق على والدها وهي سترحل عنه إلى الأبد..

وجرت أحداث أخرى غريبة في المدينة الغريبة.. فيما كانت الباخرة تتجه للرسو في الميناء البرازيلي الضخم.



الحب خارج المكان والزمان

- ١ -

عاد عبد المنعم وبيتر إلى المكان الذي يقيم فيه يوسف الكنعاني، كانت كولا تنتظره بفارغ الصبر، وكان الشيخ يوسف يغطّ في نوم عميق..

كان يبدو عليها الترقب والحيرة، وهي ترمق عبد المنعم بحب، وشعر بيتر أن معلّمه مُدَلَّهٌ في حب الصبية..

- متى سنلتقي من جديد يا سيدي؟..

- كن جاهزاً بعد ظهر الغد، أنت والرجلان، استخدم سلطتي في إحضارهما، إنه أمر، قل لهما ذلك، وسيخضعان للمحاكمة إن رفضا تنفيذه..

- سأفعل ياسيدي.. سننتظرك قرب الزورق..

- نعم.. مع السلامة..

همهمت كولا :

- إنه يحبك كثيراً..

- وأنا أثق به، إنه بحّار ممتاز..

- آه يا عبدو.. أبي سعيد لأجلي، وقد شعر أننا سنتزوج، وكدت أقول له، إننا سنرحل، ولكني خفت أن يقضي ذلك عليه..

لماذا أنت مصر على الرحيل..؟ لماذا لا تبقى هنا يا حبيبي؟ أنا خائفة من هذا الرجل..؟

- حياتي ليست هنا يا كولا.. إنهم ينتظرونني أمام الجزيرة، حياة العديد من الناس معلّقة بعودتي، لو تعرفين الوضع، إنه معقّد كثيراً.. سترين كل شيء عندما نجتاز النفق البحري منطلقين.. يا إلهي، كيف يعيش أصدقائي الآن، والباخرة تتأرجح مع الأمواج التي تدفعها نحو الصخور، لا بد أن الجميع خائفون.

- ما رأيك لو دخلنا إلى أبي، نشعره بأننا حوله.. وأنه ليس وحيداً..

- هيا بنا يا حبيبتي.. والدك رجل استثنائي، وقد لا أقابل أمثاله في الحلم..

ودخلت كولا وعبد المنعم إلى يوسف الكنعاني، كان جالساً يفكّر وهو يقلّب بعض المخطوطات القديمة، وقد علّمه أحمد المالقي الأندلسي، كيفية قراءة الخطوط وتفسيرها، وكان سعيداً بتعلّم القراءة وهو من زمن لم يكن فيه للورق وجود..

نهض يوسف الكنعاني يرحب بعبد المنعم وحبيبته ابنته الغالية كولا.. كان مسروراً لأن ابنته أحبّت ذلك الشاب الغريب الذي أتاها من عالم الغيب كما قال له المالقي..

- كيف حالك يا عمّاه؟ تبدو نشيطاً..

- بل قل سعيداً..؟ وأنا أراكما معاً والحب يشرق في وجهيكما.. هه قل لي يا بني متى ستتزوجان؟

- في أي وقت تشاء يا عماه، المهم أن تدخل الفرحة إلى قلبك، ونحن نلتقي في فرحة العمر.. كولا إنسانة رائعة ستكون في قلبي.. وسأحافظ عليها إلى الأبد.. إنها نسمة حياتي..

- ستتزوجان غداً إذن.. أريد أن أرى أحفادي يملؤون البيت.. منى عمري أن أراهم يا عبدو.. أنا أعيش لهذه الغاية، أن أرى ابنتي سعيدة مع زوج وأولاد.. لن تصدّق مدى غبطتي وقد رأيتها متعلقة بك..

فكر عبد المنعم منزعجاً:

«يا إلهي، لو رحلت عنه لقتلته العزلة، إنه يحبها كثيراً.. ماذا أفعل؟ إنه متعلّق بها لدرجة لا تصدق»

همست إليه:

- أرأيت يا عبدو؟ لن يكون الأمر سهلاً على أبي، قد يموت بعد رحيلي بوقت قصير.. أتقبل مني أن أقتله هكذا؟..

أجابها:

- سنتحادث في هذا الأمر فيما بعد.. أرجوك اهدئي..

- بماذا تتهامسان؟ هه.. إلى هذه الدرجة أنتما متعلقان بعضكما ببعض.. الحمد لله..

- أريد أن أتحادث معك في أمرٍ هامٍ يا عماه..

وكزته بمرفقها:

- ماذا تريد أن تقول له؟.. لا تكذب عليه أرجوك.. لا تعلّله بالأحفاد، ونحن سنرحل عن هنا..

- لا تقلقي يا كولا.. أعدّي لنا بعض الطعام يا حبيبتي..

- طعام؟.

قال الشيخ:

- نعم.. نعم.. وأنا أشعر بالجوع أيضاً..

- حسناً..

دخلت كولا لتعد الطعام جلس عبد المنعم قرب الشيخ:

- اسمع يا عماه.. سأستغل غياب كولا لأحادثك بالموضوع.. إنه موضوع في منتهى الأهمية..

- تبدو متلهفاً فعلاً.. خير؟..

- سنرحل أنا وكولا من هذه المدينة الغريبة.. أنا إنسان أنتمي لعالم مختلف عن عالمكم، ودخلت إلى هنا مجبراً..

- ماذا تقول؟ ما هذا الجنون يا بني؟

- اسمعني أرجوك.. لديّ الوسائل الكفيلة بإخراجي سليماً من هنا أنا وكولا.. وهناك من ينتظرني في الخارج.. وتتوقف حياتهم على عودتي إليهم..

- أنت جاد إذن؟ وكيف سترحل وكولا من هنا؟ وماذا سأفعل هنا بدونها إنها نسمة حياتي..

- سترحل معنا.. إنها فكرة قد تبدو مستحيلة لك ولكني سأشرحها لك بالتفصيل..

كان قد اتخذ قراراً غريباً مع نفسه:

ما دام البحاران الآخران يرغبان بالبقاء هنا.. فلا بأس سآخذ بدلاً عنهما يوسف الكنعاني.. وربما صديقه أحمد المالقي..

- ما بك؟ شردت بعيداً.. أنا أنتظر توضيحاً منك..

- حسناً يا عمّاه.. عندما حضرنا إلى هنا.. كانت لدينا وسائل متطورة للغوص في الأعماق، وهي ما تزال في قاربنا.. سأريك إياها وأشرح لك كل شيء بالتفصيل..

- كولا موافقة على الرحيل معك؟..

قال (مرتبكاً):

- ليس بعد.. لم أفاتحها في الأمر..

- لا تخفِ عني شيئاً يا بني.. أعلم أن عاطفة كولا، قد تتغلّب على كل شيء.. حتى عن حبها لوالدها.

- أرجوك يا عمّاه.. ثق بي.. لن أقوم بشيء إلا بموافقتك.. دعني أكمل لك الخطة..

وقطع عليهما الحديث دخول كولا:

- الطعام جاهز.. تفضّلا..

- ستشاركنا كولا الحديث.. وأرجو أن نوفق بإقناعك يا عمّاه..

- إقناعه بماذا؟..

- سأشرح كل شيء ونحن نتناول الطعام..

- أمعقول ما يقوله هذا الشاب؟ أيمكن الرحيل من هذا المكان؟ إنه شيء يبدو كالحلم بالمستحيل..

أما الباخرة فكانت تقترب من (ريو دي جانيرو) وعائدة متلهفة للقاء أخيها وهي تتعلق بيد سعد.. وفي قلبها حزن على والدتها التي ما زال جثمانها في برّاد الباخرة، ينتظر الدفن..

كان (ديلاتوري) يتأمل المرفأ البرازيلي، وقد بدأت الباخرة تتمايل أمامه، وهو يستعرض ما جرى لباخرته من أهوال ومتاعب قد لا يصدقها العقل.. وقلبه ينعصر من الحزن على عبد المنعم وبحارته الذين اختفوا، وقد طلب من السلطات البحرية التي استقبلته سفنها، البحث عن بحارته المفقودين في جزيرة صخرية.. جزيرة يرتفع سطحها مع ارتفاع الجبل الذي يتربع فوقها.. وما زالت تتخايل أمام عينيه، وهو يتفكر بالزورق المطاطي يبتعد عن الباخرة في طريقه نحو الجزيرة..

وبدأت البواخر الموجودة أمام المرفأ تطلق صفاراتها ابتهاجاً بوصول الباخرة الإيطالية، التي فقدت فجأة، ثم ظهرت بطريقة غريبة، في مكان لا يبعد كثيراً عن الشواطئ البرازيلية..

كان سعد وعايدة يقفان قرب القبطان وتصل إليهم أصوات صفارات البواخر المختلفة الموجودة في الميناء:

- إنهم يرحبون بنا يا سيدي..

- سنطلق صفير باخرتنا لنرد على ترحيبهم.. أبلغ الرجال بذلك يا سعد..

- حاضر يا سيدي..

وهبط سعد غرفة الآلات سريعاً «قال ديلاتوري لعايدة»:

- مسكينة والدتك لم تتحمل كثيراً المصاعب التي مررنا بها..

- سيحزن أخي كثيراً حين لا يراها معي..

- سيخفف عنه الحزن وجود سعد إلى جانبك، سعد شاب ممتاز، وسيكون نعم الزوج لك يا ابنتي..

- شكراً لك يا سيدي..

وانبعث صوت الصفير.. رداً على ترحيب البواخر لنا..

- بدأنا بإطلاق صفيرنا.. ردّاً على ترحيب البواخر لنا..

ثم تابع يقول:

- سيستمرون بإطلاق الصفير، حتى تقف الباخرة بمحاذاة الرصيف.. إننا نعلن عن خروجنا من مكان لم يخرج منه أحد من قبل وهو مثلث برمودا.. ليت عبد المنعم كان معنا..

ثم زفر بحرقة:

- يعلم الله في أي ظرف غريب يعيش الآن..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

وتزاحم الناس في المرفأ البرازيلي ينتظرون وصول الباخرة إلى الرصيف المقرّر..وانشغلت عايدة في البحث عن وجه أخيها بين المستقبلين..

كان سعد يضغط على أصابعها بحب.. وقد لحظ توترها.. وبدأت وجوه المستقبلين تتضح للركاب.. ولوّح بعضهم بأيديهم.. وشهقت عايدة بعصبية..

- إنه ياسر أخي ومعه زوجته وأولاده.. هناك على اليمين..

- ذلك الرجل الخمسيني الذي يلوح بمنديله..

نعم.. كيف سأبلغه خبر وفاة أمي؟ ستكون الصدمة قاسية..

- إنها إرادة الله يا حبيبتي.. سيمر الأمر بسهولة.. لا تقلقي..

فكر بقلق:

«وكيف ستعرّفه بي، ستكون مفاجأة أيضاً»

أتى ديلاتوري يطمئن عنهما :

- حمداً لله على سلامتك، أرأيت أخاك بين المستقبلين؟..

- نعم يا سيدي.. إنه هناك..

أعطى أوامره للعمال:

- ابدؤوا بتجهيز السلّم.. الروافع في المرفأ جاهزة لنقل حاويات الشحن..

- سنفعل سريعاً.. الباخرة تلاصق الرصيف..

- ألقوا المراسي بسرعة..

- كل شيء جاهز.. أتريد شيئاً آخر يا سيدي؟..

- نعم.. ليصطف جهاز الإنقاذ في وضعية الاستعداد.. سيدخل زورق الحكومة البرازيلية لاستقبالنا.. إنهم أمام الرصيف يرفعون العلم..

- في الحال يا سيدي..

- استعدوا.. السلّم الخشبي المدرّج جاهز.. إنه يصل الرصيف الآن..

كانت عايدة متوترة وهي تندفع صوب سلّم الهبوط، قال لها سعد :

- اهدئي يا عايدة.. لا تندفعي هكذا..

- ياسر يخترق الصفوف متجهاً نحو السلّم..

- لم يبدأ النزول بعد.. نحن ننتظر الإشارة من القبطان..

- حسناً..

وتدافع الركاب هابطين، وكانت عايدة في المقدمة وقد تلقفها ياسر بين ذراعيه بعاطفة شديدة، وكان سعد يقف وراءها:

- عايدة.. حمداً لله على السلامة.. أين أمي؟..

أخذت تبكي:

- ماذا أقول له يا سعد؟ ماذا؟..

- أين أمي؟ لماذا لا أراها؟..

- يا إلهي.. ماذا أقول له..

قال سعد:

- أهلاً بك يا أستاذ ياسر..

قدمته لياسر، وحكت له عن عونه المستمر لها ولأمها، وشرح سعد بعض ما جرى للعجوز:

- كان وقتاً عصيباً يا أستاذ ياسر.. لم تستطع والدتك تحمل

العواصف والأنواء والرعود.. وفترات الضياع الطويلة.. رحمها الله..

- الحمد لله الذي أرسلك يا سعد عوناً لهما..

- لولاه.. لكان الوضع شديد الصعوبة.. كانت أمي متعلقة به كثيراً..

- عفواً يا عايدة.. لم أعرفك بزوجتي (هاديا).. شغلني خبر أمي..

- أهلاً بك يا عايدة.. خذها يا ياسر لتتعرف حقائبها..

- وأمي يا ياسر؟.. هل تترك جثمانها هنا؟..

قال:

- سأتصرّف أنا في الأمر.. يجب أن تصلي البيت وتستريحي.. أنت متعبة يمكنك مرافقتنا يا سعد..

- شكراً لك.. لدي مهام يجب أن أؤديها هنا..

قالت:

- يجب أن تأتي يا سعد..

- ليس الآن.. القبطان يحتاجني بعض الوقت..

قال ياسر:

- سأصحبه معي، حين نقل الجثمان.. لا تقلقي.. هيّا.. تتعرّف الحقائب، أنزلتها الروافع في الجانب الآخر..

همست:

- لا تتأخر يا سعد..

☆ ☆ ☆

كان نقاشاً حامياً جرى بين يوسف الكنعاني وعبد المنعم.. حول الطريقة الغريبة في الخروج من المدينة.. واضطر عبد المنعم لإقناعه، أن يصطحبه إلى الزورق ليريه ألبسة الغوص..

وصحبتهما كولا، وحين وصلوا مكان الزورق، وفتح عبد المنعم الصندوق لم يجد ألبسة الغوص.. فشعر بأن قلبه يكاد يتوقف، من الذي جرؤ على سرقة الألبسة والصندوق مقفل، ولا أحد يملك المفتاح سواه؟.

كان من الواضح أن القفل مكسور بطريقة قاسية.. ولكن لماذا؟ من الذي يعرف أسرار هذه الألبسة في المدينة؟ لا بد وأن الفاعل واحد من رجاله.. بالطبع ليس بيتر، إذن إما أن يكون

أحد البحارين الآخرين أو كليهما، شعر بالدم يغلي في عروقه.. يطلب من كولا بهدوء أن ترافق أباها إلى الدار.. واتجه صوب المكان الذي يديره ديلما.. حيث طرق الباب بعصبية ففتحه ديلما، وحين رآه ابتسم مرحباً:

- عبدو؟.. أهلاً بك.. أين كولا.. لماذا لا ترافقك..

- أين رجالي يا عم ديلما؟..

- رجالك؟ بل قل رجلاك.. إنهما مخموران في ركن من المكان مع الغجريات..

- شكراً لك.. هكذا إذن..

سأله:

- خير؟ تبدو متجهماً شديد الغضب.. هل فعلا لك شيئاً؟..

- نعم.. خانا أمانتي..

قال ديلما:

- على رسلك يا عبدو، تعامل معهما بهدوء، إنهما مخموران، قد لا يقدمان لك فائدة..

- سأعرف كيف أوقظهما..

- كما تشاء.. يبدو أنهما آذياك كثيراً..

أحضر دلواً من الماء البارد وصبّه فوقهما، ثم رفسهما برجله..

- استيقظا أيها المخبولان..

- سيدي.. ماذا تريد..

بدأ يضربهما بقسوة، ليزيل تأثير الخمر عنهما، وهو يقول:

- سأقتلكما بيدي هاتين..

انتفضا مذعورين وهما يريانه في أوج غضبه..

- كيف كسرتما قفل الصندوق أيها التعيسان؟..

قال القصير:

- لم أفعل شيئاً يا سيدي.. هو من قام بذلك..

نهضت المرأتان اللتان بصحبتهما تدافعان عنهما:

- لماذا تتشاجر معهما اتركهما.. إنهما شابان لذيذان.. نعم.. لذيذان..

دفعهما عنه:

- ابتعدا عني.. إنهما من رجالي أنا أعرفهما جيداً.

- لا وجود للخدم في مدينتنا، أنت تخرق القانون..

- وسنحضر شرطة المدينة أيضاً..

صرخ يناشد ديلما:

- يا عم أرجوك.. أبعدهما عني.. أريد أن أحقق مع رجليّ..

أبعدهما ديلما عنه:

- ابتعدا عنه.. يبدو أنهما ارتكبا خطأً كبيراً..

انفرد بهما:

- أرجوك يا سيدي اترك يدي.. هو من قام بذلك..

- وساعدته أنت؟..

انتفض الطويل:

- ماذا تريد منّا؟ لم تعد سيدنا، نحن لا نأتمر بأوامرك..

قال بهدوء:

- أريد الغوص فقط، ولتذهبا إلى الجحيم..

- ليست معنا يا سيدي.. حاول بيتر تخليصها منّا.. ولكن..

- ماذا فعلتم ببيتر أيها المجرمان؟..

قال الطويل بوقاحة:

- ألقيناه مع البذلات في المحيط.. ربما جرفه التيار بعيداً.. أصبحت ملزماً على البقاء هنا..

- أيها المجرمان.. ماذا سأفعل بكما؟ لقد خربتما كل شيء..

قال القصير:

- ليس أنا.. هو من اقترح.. ونفَّذ..

- وساعدته في قتل بيتر أيضاً..

قال الطويل:

- أنت من قتله وقد غرست في ذهنه فكرة الهروب.

أحضر ديلما حبلاً:

- يبدو أنهما قاما بعمل سيئ للغاية.. هل أوثقهما؟..

- القتل قليل عليهما.. لقد قتلا رفيقهما..

انتفض ديلما:

- ماذا؟ معقول؟ القتل ممنوع هنا.. وسيعاقب القاتل بقانون صارم، قوانين المدينة لن ترحم القاتل.. سأحضر لك رجال أمن المدينة..

دفعهما عبد المنعم أمامه:

- تعاليا معي.. أين ألقيتما لباس الغوص؟ وأين دفعتما ببيتر إلى المياه؟ هيّا تحركا..



- ٣ -

كان عبد المنعم يشعر بالغضب واليأس الشديد.. وقد رغب فعلاً أن يتخلص منهما.. وقد منعه عن ذلك تذكير ديلما له بأن القتل غير مسموح به في المدينة وأن عقابه صارم..

وهو يقترب من مكان رسوّ الزورق وقد قبض بيديه على عنقي الرجلين، وذهنه يتخبط فيما يمكن القيام به للبحث عن ألبسة الغوص.. وجد جمعاً من الناس هناك..

- خير؟ ماذا يجري؟..

- إنه رجل غريب.. أنقذه السابحون من الغرق.. الناس يتجمعون حوله..

- رجل أُنقذ من الغرق.. بيتر؟ لا تحاولا الابتعاد عني لن أترككما..

رأى الرجل ممدداً وهو ينتفض واقفاً حين رآه:

صرخ بلهفة:

- بيتر..

- يا سيدي.. أنا بخير لا تقلق، أنقذت ألبسة الغوص أيضاً.. إنها هناك قرب الرصيف..

- حمداً لله على سلامتك يا بيتر..

- شكراً لك يا سيدي..

وانضم عدة رجال جاؤوا بصحبة ديلما إلى الجمع، واقترب ديلما منه ومعه أحمد المالقي:

قال ديلما:

- أحضرنا رجال الأمن يا عبدو، أين المتهمان؟..

- هاهما.. كيف حالك يا عم أحمد..

- بخير.. أيقظني ديلما من نومي، لأحضر الرجال للقبض على المجرمين.. قال لي: إنهما قتلا رفيقاً لهما..

- إنه هذا الرجل.. ولم يمت لحسن الحظ..

- اقبضوا عليهما.. سيحاكمان غداً..

- أرجوك يا سيدي.. اعفُ عنّا.. لم يمت بيتر..

- سنفعل كل ما تريده.. اعفُ عنّا فقط..

- خذ هذين الخائنين يا عم أحمد.. إنهما يستحقان عقاباً شديداً..

صرخ الطويل:

- سنحكي أنك تخطط للهرب من هنا.. وسنفضح السرّ إن لم تساعدنا..

قال المالقي:

- بماذا تخرّف أيها الرجل؟..

أكد القصير:

- إنه يقول الحقيقة.. هناك خطة يرسمها صديقك هذا للهرب من هنا..

انتفض بيتر غاضباً:

- لا تصدقهما يا سيدي.. إنهما يكذبان، يحاولان التهرّب من التهمة الموجهة ضدهما بافتعال الأكاذيب.

- تعاليا إذن.. هه... شدّوا وثاقيهما جيداً.. بإذنك يا عبدو..

- شكراً لك يا عم أحمد..

همهم ديلما مداعباً عبد المنعم:

- الحمد لله، صاحبك بخير يا عبدو..

- نعم.. حمداً لله على ذلك..

وابتعد أحمد المالقي وشرطته مع ديلما.. وساعد بعض الناس في حمل بيتر إلى مكان الاستشفاء كما يسمونه.. واطمأن عبد المنعم على ألبسة الغوص وأخذ يفكّر بالخطوة التالية وهو يخفي الألبسة في أسفل القارب المطاطي.. أما يوسف الكنعاني فكان يقلّب أقوال عبد المنعم، في رأسه دون أن يقتنع بفكرة إمكانية الهرب من المدينة، وقد رأى بنفسه كيف أن الألبسة التي حكى له عنها عبد المنعم.. قد اختفت واصفرّ وجه زوج ابنته المقبلة من مفاجأة اختفاء تلك الألبسة..

تبادل الحديث مع كولا.. محاولاً استيعاب ما تفكر فيه، وقد شعر أنه لن يعرف النوم، حتى يستوعب فعلاً ما يجري.. فطفق يقطع ردهة الدار جيئة وذهاباً في انتظار عودة عبد المنعم.. وقد لحظ أن كولا قد غفت على المقعد بهدوء..

عاد عبد المنعم أخيراً.. وطلب من يوسف الكنعاني أن يصطحبه، فما كان يبحث عنه قد وجده فعلاً.. وخرج الشيخ معه مرغماً.. وهو غير مقتنع بما يقوله.. وحين وصلا الزورق أخرج عبد المنعم أحد ألبسة الغوص وارتداه.. وطلب من الشيخ أن يرتدي لباساً مشابهاً..

وبعد مدة قصيرة كان الاثنان يغوصان في الأعماق، وقد شعر الشيخ أن اللباس الذي يرتديه أشبه بآلة تساعد الإنسان على قهر المياه وأعماقها والتجوّل فيها بسهولة ويسر.. تعلّق الشيخ بذلك اللباس الذي يمكنه من الحركة في الأعماق..

وحين شرح له عبد المنعم فكرة الخروج مع توابيت الموتى خارج المدينة، شعر أن الأمر ممكن فعلاً.. فكّر حينها باصطحاب صديقه أحمد المالقي، الذي هو مسؤول عن أمن المدينة، لِمَ لا يغامر أحمد معه؟ قد ينجحون جميعاً في الخروج من جحر المدينة الضيّق وسط عالم غريب مدهش.. إلى العالم الرحب الواسع..

رغم غرابة الفكرة، فإن تصميم عبد المنعم على الخروج وتعلّق كولا به.. يعني أنها سترحل معه، وكيف سيبقى وحده دون كولا؟ إذن لا مجال أمامه سوى موافقة عبد المنعم على الرحيل، وعليه الآن إقناع صديق عمره أحمد المالقي الأندلسي بالرحيل معهم أيضاً..

وهكذا يمم شطره نحو بيت المالقي الذي استقبله بجفاوة كعادته، وحين شرح له شيئاً عن الموضوع:

- أمعقول ما تقوله يا يوسف؟ إنه أشبه بخرافة مستحيلة..

- لا تتعجّل يا صديقي، سأريك لباس الغوص، وأنت بحار متمرّس سأجعلك تجربه وتختبر إعجازه المدهش..

- ولكني مسؤول عن الأمن، كيف أسمح لكم بالخروج هكذا؟..

- سنخرج وستكون معنا، إنها عملية مؤكدة، نحن نجتر حياتنا هنا دون إحساس بشيء.. مجتمع مغلق أشبه بقفص يحاصر الحرية..

- قد يكون الخارج وبالاً علينا يا يوسف.. إنه زمن يختلف عن زمننا.. لقد استطعنا التكيف مع تغير الأزمنة هنا، ولكن قد يكون الخارج عصياً على التكيف..

- كولا ستذهب معه.. وكولا هي نسمة الحياة التي أتنسمها، لن أتركها ترحل وحيدة.. وأنت صديقي وأخي وحبيبي، كيف سأذهب دونك؟.

- لنكن واقعيين يا يوسف.. ليس الأمر بهذه السهولة.. إنه خروج على القوانين.. وربما الدخول في دائرة الموت المؤكد.. لم ينجح أحد من قبل في الخروج من هنا.. الجميع يعتبرون ذلك مستحيلاً، كيف ستخرجون من هنا جميعكم، ببساطة؟.

- أحمد.. أرجوك.. استمع إلي جيداً.. إنه قدري.. مهما جرى

أنا مرتبط بكولا ومرتبط بك أيضاً.. أتسمح لي بالذهاب وحدي دون صديق عمري أحمد المالقي الأندلسي..

همهم هازاً رأسه:

- ما أشد عنادك..

ولكنه كان رافضاً الفكرة في داخله:

- لن أسمح لهم بتحقيق حلمهم هذا.. أبداً..

☆ ☆ ☆

ازداد ياسر إعجاباً بسعد.. وقد أطنبت عايدة في الحديث عنه.. وحين ذهب لإحضار جثمان والدته، أصرَّ على اصطحاب سعد، حيث أقيمت مراسم جنازة العجوز بحضور عدد كبير من المغتربين.. كما حضرها أيضاً قبطان الباخرة (ديلاتوري) وبعض بحارته..

وشعر ياسر أن أخته الأرملة متعلقة بسعد.. فانفرد به بعد الجنازة يتحادثان..

- لم تقل لي يا سعد، ماذا ستفعل في المستقبل؟

- تقصد بعد عودتي؟ لا بأس.. هذه هي رحلتي الأخيرة،

وبعدها سأتخرج رسمياً من الأكاديمية البحرية في (جنوا) وأعود إلى الوطن.. لأمارس مهنتي على إحدى البواخر..

- وما موقع عايدة في مستقبلك؟..

- أتمنى أن تقبل بي زوجاً.. إنها رائعة..

- هل سألتها؟..

- ليس مثل هذا السؤال المباشر..

- إذن سأسألها أنا..

دخلت هاديا بالقهوة، فقال لها ياسر:

- اجلسي مع ضيفنا يا هاديا، سأنفرد بعايدة قليلاً..

- لا بأس..

لكن عايدة لم تكن على ما يرام حين التقى بها ياسر:

- أمتأكدة من مشاعرك يا عايدة؟..

قالت وهي تتنهد:

- نعم يا أخي.. إنه شاب ممتاز.. ولكني خائفة عليه..

- من ذكرياتك مع زوجك المتوفى؟.. لم تعيشي معه طويلاً..

- أخاف على سعد من المقارنة.. قد أخسره.. إنها مسألة معقّدة..

- ترفضينه إذن رغم محبتك له؟.

- فكرت طويلاً.. قلبت الأمر.. شعرت أن ارتباطي به قد يتعسه في المستقبل..

- سأبلغه برفضك هذا إذن..

- هل طلبني؟ أقصد هل حادثك في موضوع..

- موضوع الزواج منكِ؟ نعم.. واستأذنته في أخذ رأيك..

- يا إلهي.. ماذا أفعل؟..

- لا تنزعجي، ولا تقلقي.. سأبلغه الأمر بنفسي.. ولن تريه بعد الآن..

قالت مرتبكة:

- ماذا؟ لن أراه..

- هذا أفضل لك، حتى لا تشعري بالحرج أمامه.. بإذنك..

انهارت بعد خروجه وهي تبكي:

- «يا إلهي.. كيف فعلت هذا»..

☆ ☆ ☆

- ستتناول الطعام معنا يا سعد..

- أنا مرتبط بعمل يا أخ ياسر.. قد أتأخر على القبطان..

- إنه رجل يقدّر الأمور، يعلم أننا في عزاء..

استأذنت هاديا:

- سأحضر الطعام أنا وعايدة..

يسأله ياسر بعد خروجها:

- أتعرف كل شيء عن عايدة؟..

- بالطبع..

- وأنها أرملة، توفي زوجها الذي كانت تعشقه؟..

- أعرف أنها مترملة في شهر عسلها..

- ولا يشكل لك ذلك شيئاً، أقصد قد تشعر بالغيرة منه في المستقبل..

- أنا رجل منطقي، ومثل هذه الحالة لا تشكل بالنسبة إلي مانعاً..

- على بركة الله إذن..

- أخذت رأيها؟..

- نعم..

وانفتح الباب وخرجت عايدة ملهوفة:

- ياسر.. هل قلت له؟..

- نعم.. عندك مانع؟..

أخذت تبكي:

- ولكن لا أستطيع العيش بعيداً عنه..

- ومن قال: إنك ستعيشين بعيداً عنه..

- قلت لك.. إنني..

- موافقة على الزواج منه.. وهذا ما قلته له..

أخذت تبكي بفرح:

- ظننت..

- اجلسي إلى جانب خطيبك يا مجنونة..

شعر سعد بغصة حبيسة: «ليت عبد المنعم كان هنا.. يا إلهي كم أشعر بالاشتياق إليه؟»

☆ ☆ ☆

ويدأت الاستعدادات لرحيل الباخرة بعد أن ظلت في المرفأ البرازيلي قرابة الشهر، وكان سعد يضم عايدة إليه، وهما يتأملان رصيف المرفأ المحاذي للباخرة، وقد خرج ياسر وأسرته وأصدقاؤه يودعون عايدة وزوجها..

وانتقل خيال سعد إلى ذلك الحلم الغريب الذي رآه مع عايدة وهما فوق المدينة العجيبة على أحد الكواكب التي تسكنها كائنات عاقلة، وشعر أن الزمن سيجعله يقابل عبد المنعم من جديد رغم كل الأخبار المتواترة عن فقدانه للأبد..

أما عبد المنعم.. فكان يستعد وكولا وبيتر ويوسف الكنعاني، الذي اعتقد أنه أقنع صديقه المالقي بالرحيل وكانت لحظة الصفر تقترب مع العد التنازلي للرحيل..



- ٤ -

- الحمد لله يا عبدو، والدي بدأ يستعد للرحيل وهو مغتبط..

- هذا ما أراحني يا حبيبتي.. ولكني لست واثقاً من قبول العم أحمد المالقي لفكرة رحيلنا معاً..

- هو متعلق بوالدي، ولن يتأخر عن الانضمام إلينا..

أتاهما صوت يوسف الكنعاني:

- جهزت كل شيء يا عبدو، وسأذهب إلى أحمد لأرى مدى استعداده..

- ونحن بانتظار عودتك يا عماه.. لم يبق سوى القليل على انبلاج الفجر..

- حسناً لن أتأخر..

خرج يوسف، علقت كولا:

- أترى مدى سعادته؟..

- إنه سعيد لأنه وفَّر لك السعادة بموافقته على السفر معنا..

- أشعر بالخوف يا عبدو.. سننتقل إلى زمن جديد لا نعرف عنه شيئاً.. هل سنستطيع التكيف معه وتفصلنا عنه أزمنة طويلة؟..

- أنت معي يا حبيبتي كل شيء سيصبح سهلاً..

كان يشعر بالتوتر والقلق والفجر يقترب من زمن حاسم لم يمر مثله في حياته حتى ولا بالحلم..

☆ ☆ ☆

- هذا كلام جديد يا أحمد..

- أنا مسؤول عن الأمن في هذه المدينة يا يوسف.. ضع نفسك مكاني..

- سيتسلّم نائبك المسؤولية، إنه رجلٌ متمرّس أيضاً..

- ولكن قوانيننا تحتّم على سكان المدينة عدم مغادرتها..

- لأن أحداً لم يفكر بكيفية الخروج، ولم يملك الوسيلة المناسبة.. وعبد المنعم متمسّك بفكرة الرحيل مع كولا، ولديه الوسائل المناسبة.. وثمة أناسٌ كثيرون ينتظرون عودته، وقد تتوقف حياتهم على عودته..

هزَّ المالقي رأسه وهو يفكر:

- «يجب أن أسايره، وسأرسل نائبي لحصار المكان بعد قليل.. سيغضب مني كثيراً.. ولكن لا مفرّ من تطبيق القوانين..»

- أراك شردت.. أتفكر بحل معيّن؟..

- بصراحة لا أستطيع إغضابك.. ولكني أفكر بعدم الرحيل.. والابتعاد عن مكان انطلاقكم ما أمكن.. لا أستطيع الذهاب يا يوسف.. عندما قبلت أن أكون مسؤولاً عن أمن المدينة، عنى ذلك الكثير بالنسبة إلي إنها أمانة كبيرة لا أستطيع التخلي عنها..

- وأنا يا أحمد؟ ألم تأخذ علاقتنا بعين الاعتبار؟ لم أحب أحداً في حياتي قدر محبتي لك.. أتتخلّى عني بهذه السهولة؟..

هز رأسه بحزن:

- لا تضغط عليّ يا يوسف، لا تعذبني أكثر مما أنا أتعذب.. إنها الأمانة التي أحملها، أتريد مني أن أكون خائناً للآخرين؟..

- اترك نائبك (بختيار) يُكمِل المسيرة عنك، إنه رجلٌ أمين ومتمرّس أيضاً.. سيكون كل شيء على ما يرام..

- وماذا سيقول عني الناس؟..

- سيقولون غامرَ وصديقه بالخروج من المدينة، مع عبد المنعم وعروسه، في عملية أشبه بانتحار جماعي، لأنهم خرجوا على قوانين المدينة بالبقاء فيها إلى الأبد.. أرجوك يا أحمد.. لم يبق سوى وقتٍ قصير.. لا تعذبني بترددك..

قال باستسلام:

- لا فائدة من مقاومتك..

- هيا استعد بسرعة، يجب أن تصطحب معك المخطوطات التي تحتفظ بها، إنها من زمن حضاري آخر، شعرت أنه لا ينفصل عن حضارتنا الكنعانية.. أخذتُ أشياءَ من زمني أيضاً.. هيا يا أحمد أرجوك..

- حسناً يا يوسف سنلتقي في المكان المحدّد مع انبلاج الفجر..

- قبلت أخيراً؟ كدت تقتلني بعنادك..



تعذَّب أحمد المالقي كثيراً، وكانت لحظات قاسية شعر أنه يمر بها، وهو يتذكر كلمات صديق عمره، والحيرة تتملكه، لم يدرِ كيف يتهرب من المواجهة في لحظة الصفر.. وأخيراً حسم أمره، فالمدينة أمانة بين يديه.. فأرسل يستدعي (بختيار) نائبه.. كان رجلاً شديد البأس، ذكياً صادقاً، أتى من زمن (ديلما) حيث كان القراصنة يسودون، كان على إحدى بواخر الركاب التي جنحت في المنطقة، وقد أسره القراصنة بعد أن قاومهم كثيراً..

وحين طاردت سفن الأسطول البرتغالي، إحدى سفن القراصنة وكان بالمصادفة فوقها، لجأت السفينة إلى الجزيرة الصخرية، لتبتلعها الأنفاق إلى داخل المدينة الغامضة.. وقد تعلّق (بختيار) بأحمد المالقي وأصبح تابعاً له، يخدمه في كل شيء..

وحين عيّن أحمد المالقي مسؤولاً عن الأمن في المدينة، وضع (بختيار) نائباً له.. لثقته الكبيرة بقوته وإمكاناته..

حضر بختيار مستغرباً استدعاء معلمه له في هذا الوقت المتأخر..

- خير يا سيدي؟ تبدو متعباً.. هل أحضر لك الطبيب؟..

- اجلس يا (بختيار).. لا وقت لدينا..

- حسناً.. أنا مستعد لأي شيء ترغب مني أن أنفذه..

- سأسألك يا بختيار..

- ماذا يا سيدي؟..

- إذا حاول أحد خرق القوانين في المدينة، هل تقف مكتوف اليدين؟..

- بل أضحّي بحياتي لإعادة الأمور إلى نصابها..

- مهما كان ذلك الذي يخرق القانون؟ أقصد مهما كانت صفته؟..

- نعم يا سيدي حتى لو كان أعزّ الناس على نفسي..

- أتصدّق يا بختيار، كدت أنا أخرق القانون..

- أنت يا سيدي..

- نعم.. أتصدق؟..

- كيف يا سيدي؟ وأنت هنا؟.. و..

- وما زال الأمر يضغط عليّ.. لذلك ستتولى هذه الليلة مهمة إدارة الأمن في المدينة، خذ بعض رجالك واحرسوا جيداً المكان الذي تلقى فيه التوابيت.. في نفق المدينة الشمالي.. ووزع بعضهم في زوايا المدينة..

- لماذا تبدو قلقاً على الأمن إلى هذه الدرجة، أتشم رائحة مؤامرة على الأمن هنا؟..

- نعم.. أنت محق أشم رائحة مؤامرة..

- حقاً؟ مؤامرة؟ اشرح لي بالتفصيل يا سيدي..

- سأحكي لك كل شيء، وقلبي يتقطع يا بختيار.. أشعر أنه لا خيار أمامي.. يجب أن أحكي كل شيء..

☆ ☆ ☆

- ٥ -

لم يكن عبد المنعم مطمئناً إلى تأكيدات يوسف الكنعاني، عن قبول أحمد المالقي لفكرة الرحيل، لذلك بكّر وبيتر في إحضار ألبسة الغوص إلى المكان الذي يلقى فيه الموتى.. حيث وضع الألبسة في مخبأ أمين.. وطلب من بيتر أن يقبع قرب المخبأ دون أدنى حركة حتى يعود وكولا ويوسف وربما أحمد المالقي.. كانت كولا جاهزة مع والدها، فاصطحبهما عبد المنعم نحو مكان الرحيل، ولحظ في طريقه حركة غير عادية لرجال الأمن.. فأوجس في نفسه خيفة، وشدّ على أصابع كولا وهم يسيرون بصمت..

وصلتهم أصوات الأمواج المتلاطمة، ولحظ عبد المنعم ازدياد حركة رجال الأمن حول المدخل الذي يزمعون اجتيازه، تمهيداً لارتداء ملابس الغطس.. سمع همساً قربه.. ووصل إليه صوت بيتر:

- لا تدخل من هذا الباب يا سيدي..

- لماذا يا بيتر؟ ما الذي يجري؟..

- إنهم ينصبون كميناً، سمعتهم يحكون عن مؤامرة..

- مؤامرة؟ هل وصلوا إلى لباس الغطس؟..

- لا يا سيدي.. تعلم حرصي.. أعتقد أن الرحيل من هذا المكان وفي هذا الوقت، بالغ الخطورة.. سمعوا جلبة وأصوات أسلحة وظهر رجال الأمن عن بعد..

قال بيتر:

- الأفضل أن نختبئ خلف هذه البراميل المغلقة بسرعة..

ولكن الكنعاني رفض الاختباء:

- هيا يا أبي أسرع..

- أنا أنتظر أحمد، سأعرف السبب، اختبئوا أنتم..

- ولكن؟..

جاء بها عبد المنعم إلى المخبأ:

- لا وقت للمناقشة يا كولا.. هيا

انتشر رجال الأمن في المكان وسأل أحدهم الكنعاني باستغراب:

- ماذا تفعل هنا أيها العجوز؟..

- انتظر حضور سيدك..

- الوجود في هذه المنطقة ممنوع.. هيا تحرك بعيداً..

- لن أتحرك خطوةً واحدة قبل أن أرى سيّدك..

وأتى بختيار مع مرافقته:

- ماذا يجري هنا؟.

- هذا العجوز يرفض الحركة من هنا قبل أن يراك..

- يراني؟.. الشيخ يوسف الكنعاني؟ أهلاً بك يا سيدي...

- أين أحمد سيّدك؟..

- إنه متوعك، لا يستطيع الحضور..

ثم قال له بصوتٍ منخفض:

- أين بقيّة الجماعة؟..

- بقية الجماعة؟.. من تقصد؟..

- حكى لي سيدي كل شيء لا داعي للمراوغة.. أين ابنتك وعريسها المقبل؟..

انتفض:

- معقول؟ أحمد فعل هذا بي.. يا إلهي..

- لم تقل لي أين الجماعة؟..

- يبدو أن سيّدك كان يتخيّل أوهاماً..

- أوهاماً؟ ولماذا أنت هنا؟ في هذا المكان بالذات؟ تنتظر حضور البقيّة؟ حسناً سننتظر معاً..

كان يتمتم مستاءً:

- «أمعقول ما فعلته يا أحمد؟ لا أصدق أبداً.. يا إلهي..»..

اندفع أحد رجال الأمن:

- هل نفعل له شيئاً يا سيدي؟..

هدّأهم بختيار:

- سننتظر قليلاً.. دعوه وشأنه الآن سنراقبه.. ولن ندعه يبتعد عن أعيننا..

☆ ☆ ☆

وخرجت الباخرة الإيطالية مبتعدة عن المرفأ البرازيلي، وسعد يضم عايدة إلى صدره وهما يراقبان الأمواج ويغيبان في حلمهما اللذيذ..

وفي تلك الليلة أقام (ديلاتوري) حفل عشاء على شرفهما.. ولما انصرف المدعوون أسرّ لهما ديلاتوري بالأخبار التي وردته عن عبد المنعم..

- أبلغتنا السلطات الأميركية أنها جالت بطائراتها البحر، وفوق كل الجزر في منطقة برمودا، ولا أثر لعبد المنعم ورفاقه.. يبدو أن رحيلنا الفجائي الغريب قد سبّب مأساة لهم..

- مأساة؟ كيف؟ كانوا على الجزيرة، أين اختفوا؟..

- لا أدري ما أقول لك يا سعد.. ولكن هذا ما أبلغته لنا السلطات الأمريكية، ولا أخفيك أنني غير مطمئن عن حياتهم.. إنها جزيرة غريبة..

- مستحيل.. عبد المنعم بحار شجاع، وهو قادر على الخروج من أكثر المآزق تعقيداً..

- أنا معك.. ولكن (٥٠٠) طائرة بحث جابت المنطقة بحثاً، معتمدة على تقنيات رصد الأهداف الأرضية والبحرية، ولم

تتحرك جزيرة إلا ونقّبت في زواياها، لا أثر لزورق أو لبشر.. جابوا المنطقة عدة مرات دون جدوى.. (يتنهد) ربما كانوا ضحايا مثلث برمودا يا سعد..

- أنت مقتنع بتلك التقارير:

- تقريباً.. ما الذي يجعلهم يكذبون؟ بالعكس لو عثروا على أحد لهاجت وسائل إعلامهم بأخبار بطولات إنقاذ ضحايا برمودا.. وهو أمر هام بالنسبة إليهم..

- لا أستطيع أن أصدق أن عبد المنعم لم يعد له وجود.. مستحيل..

هدأته عايدة:

- يجب أن نقف صاغرين أمام هذه المصيبة يا سعد.. لا خيار أمامنا.. هل نستطيع أن نفعل شيئاً آخر؟.

قال ديلاتوري:

- سأطلب من السلطات الأمريكية معاودة البحث، وسأقوم بنفسي بالتجوال في المنطقة.. ولن أيأس حتى أتأكد من أنه فقد فعلاً..

- أمعقول يا سيدي أن ينتهي الأمر هكذا؟..

- ماذا نستطيع أن نفعل؟.. هل أغامر بالعودة إلى المنطقة والتجوال فيها، والوقوع في تياراتها القاتلة

- يجب أن يكون هناك حلّ، للبحث عن عبد المنعم ورجاله، يجب أن نواصل البحث بأية طريقة.. ربما كانوا في مأزق خطير ويحتاجون إلى مساعدة؟..

- ولكن كيف؟ وليس من أثر لهم..

- لا أدري قلبي يحدثني أنه بخير..

- وأنا كذلك.. لدي إحساس بأنه ما زال حياً.. ولن أقهر هذا الإحساس بفكرة موته..

- اسمع يا سعد.. أنت أحد أمهر بحارتي، وكان عبد المنعم أيضاً أحد أمهر البحارة، ولن أتخلّى عن فكرة البحث عنه أبداً.. ما دمت مقتنعاً وزوجتك بأنه ما زال حيّاً.. هه.. سنستعرض الأمر من مختلف جوانبه، ونناقش إمكانية الاستعانة من جديد بفرق البحث الأمريكية، لأنها الأكثر تقنيّة وقدرة في بلدان المنطقة..

- حسناً يا سيدي.. على بركة الله..

☆ ☆ ☆

- ٦ -

كان عبد المنعم يربض وكولا وبيتر يختفون بحرص خلف البراميل، ويوسف الكنعاني يروح ويجيء أمام المدخل ورجال بختيار يراقبونه.. لم يقترب من البراميل حرصاً على ابنته ورجلها، وبدا أنه ينتظر حضور أحمد المالقي فعلاً..

وحضر أحمد المالقي متأخراً والفجر يوشك أن يبزغ بين الفتحات الصخرية، ورأى يوسف الكنعاني يتمشّى أمام المدخل..

- هه.. لم تقوموا برحلتكم الانتحارية يا يوسف؟..

- الانتحار أفضل من الخيانة.. لم أتوقع في حياتي أن أراك تخون ثقتي.. أنا يا أحمد أنا؟ كنت أعتقد أننا صديقان حقيقيان يفدي بعضنا بعضاً عند الضرورة..

- يوسف أرجوك..

- تجد كلامي ثقيلاً عليك؟ لا فائدة على كل حال..

أتى بختيار:

- أهلاً بك يا سيدي.. لم نر أحداً مع الشيخ..

- يبدو أنني كنت أتوهم يا بختيار.. يمكنكم الانصراف..

- ولكن وجود الشيخ في هذا الوقت يبدو غريباً..

- إنه يبحث عني يريد أن يراني لأمرٍ هام.. ليس الأمر كما كنت أعتقد..

- أمتأكد يا سيدي أنه لا حاجة إلى الرجال؟

- نعم يا بختيار نعم.. يمكنكم الانصراف..

- سيلقون بعض التوابيت بعد قليل هنا..

- لا بأس.. سأكون هنا مع الحارس.. لا تقلق..

- كما تشاء يا سيدي.. بإذنك..

صرخ الكنعاني:

- لن أرضى أن تذهب هكذا دون أن تعتذر، لقد أهنتني..

- هل أساء إليك يا يوسف؟..

- لقد أهانني.. كما أهنتني أنت.. ولكن..

- أنا أعتذر إليك.. أرجو أن تسامحني.. اعتذر إليه يا بختيار..

- أنا أعتذر يا سيدي.. أرجو أن تسامحني.. كنت على خطأ..

- حسناً.. يمكنكم الانصراف..

وبعد ابتعادهم سأله المالقي:

- أين بقية الجماعة؟..

- شعروا بكمينك يا أحمد، فلم ينفّذوا فكرتهم.. سامحك الله..

- ليتك تفهمني يا يوسف.. هيا لنجلس عند المدخل الغربي، قرب قهوة ديلما، الجو يعطي إحساساً بالانتعاش..

- لا يا أحمد.. لست في مزاجٍ حسن..

- تحقد عليّ..؟

- لا.. فاجأني عملك، لم أتوقع من صديقي الوحيد أن يخون ثقتي..

- ولكني مؤتمن على الأمن في المدينة.. أمن الناس أهم من أمن الفرد..

- لو ذهبنا، ماذا سنؤثّر على الأمن؟ لن يفكر أحدٌ باللحاق بنا، لأنه لا يملك الوسيلة التي نملكها، ذهابنا لن يؤثر على أحد يا أحمد.. لا تحاول التأثير عليّ..

- ربما.. ولكن العملية غير شرعية..

وبدأت الجنازات تتدفق على المنطقة المحددة لإلقاء التوابيت... رجالٌ ونساءٌ يبكون موتاهم:

قال أحمد موضحاً:

- إنها ثلاثة توابيت يا يوسف.. سيلقونها في المجرى.. نسيت أن أقول لك.. إن المجرى مغلق بشباك قويّة.. حتى لا يتسرب القرش إلى الأنفاق المائية.. لذلك لو ألقيتم أنفسكم لما استطعتم الخروج من الشباك.. كان رجال الأمن قد التقطوكم بسهولة.. نحن لا نفتح الشباك إلاّ وقت إلقاء التوابيت، هذا أمر لم تكن تعرفه يا يوسف..

- حقاً؟ لِمَ لم تخبرني بذلك من قبل؟..

- لم أكن أرغب بذهابك..

- ولكنك قبلت مرافقتي؟..

- اضطررت أن أجاملك، ولكني لم أوافق في قرارة نفسي..

- حسناً، متى ستلقون التوابيت..؟

- حين تحضر التوابيت الثلاثة.. حضر تابوت واحد.. وها هو تابوت آخر مع جماعة أخرى..

ألا تسمع أصواتهم:

- نعم.. نعم..

كانوا يؤبنون الميتة في التابوت الجديد:

- كاد أولادي ينفجرون من القهر عليها، كانوا يحبونها كثيراً.. ولكنها في الأيام الأخيرة كانت متوعكة الصحة، تشرد كثيراً رغم محاولاتها إدخال البهجة على قلوبهم بتصنع المرح ورواية الحكايات الطريفة..

- لا تتصوري كم حزن زوجي لرحيلها، كان يعتبرها في مقام والدته المتوفاة، وحين جنحت باخرة الركاب إلى هنا، كان طفلاً يسافر إلى والديه قرب ميامي، اعتنت به أمي كولدها.. ألا

تتذكرين؟ كان رفيقك في الدراسة.. ولم أكن قد ولدت بعد.. آه.. يا أماه.. بماذا أرثيكِ..

وانضم التابوت الثالث مع ناديه..

- أرجوك يا ابنتي.. اهدئي..

- إنه زوجي يا أماه.. كيف سأعيش دونه..؟

- أترين يا أختاه، الحزن يلفها أيضاً، إنها زميلتي في العمل وقد فقدت زوجها، كان شاباً..

- قد تتزوج من جديد.. إنها جميلة أيضاً..

- كانا عاشقين، لا أعتقد أنها ستنساه..

- أماه.. ماذا سأفعل؟

- أرجوك يا ابنتي اهدئي.. تابوت آخر قادم.. إنه رفيق زوجك.. في الحادثة الأليمة، مسكينة زوجته أيضاً..

- سأل يوسف:

- متى سيعدون الشبكة؟..

قال أحمد:

- بعد قليل حين تكتمل المراسم.. إلى أين..؟

- سأغيب لبعض الوقت وأعود إليك..

- يجب أن نلتقي بعد قليل.. سأشرح لك الأمر من جديد قد تسامحني..

- لا بأس يا أحمد..

واقترب يوسف الكنعاني بحرص من المكان الذي يختبئ فيه عبد المنعم وكولا وبيتر.. وطلب منهم الاستعداد للرحيل بارتداء اللباس.. وحكى لهم عن الشباك.. وعن التوابيت التي ستلقى سريعاً..

وحين أعطاه عبد المنعم بدلة الغوص الخاصة به.. رفض أن يرتديها، كان يريد أن ينجحوا هم، ويبقى في المدينة الغريبة، ليحمي رحيلهم من أية محاولة قد يقوم بها أحمد المالقي.. ولكن كولا.. أخذت تبكي..

- لن أرحل بدونك أبداً.. لقد وعدتني..

- أنا خائف أن يتصرف أحمد المالقي، بشكل يؤذيكم، الشباك خطرة قد يصطادكم بها، سأمنعه من ذلك إذا كنت قربه..

- لن تستغرق العملية سوى ثوانٍ، لن يستطيع أن يقوم بعمل سريع لمنعنا.. سنسبقه..

- ولكني خائف عليكم..

- إن لم ننجح جميعاً، فلا فائدة من الرحيل.. كولا متعلقة بك.. ولن ترحل بدونك.. أرجوك.. ارتدِ لباس الغوص يا عمّاه..

- ولكن؟..

- أرجوك يا أبي يجب أن ننجح..

قال مستسلماً:

- حسناً..

- عجّل يا أبي.. إنهم يستعدون لإلقاء التوابيت..

ورفعت التوابيت برافعات خاصة لإلقائها في المجرى بعد رفع الشباك.. وسط صخب وضجة من أهالي الموتى.. وأصوات النحيب والبكاء تتعالى..

ووسط هذه اللحظات الحزينة، شاهد الناس أربعة أشخاص يرتدون ألبسة غريبة يقفزون إلى البحر وسط التوابيت الملقاة..

وينفذون من الشباك مع التوابيت التي جرفتها التيارات البحرية القوية صوب الأعماق. كان أحمد المالقي يرقب ما يحدث مذهولاً، وقد اعتقد أن يوسف صديقه والآخرين قد صرفوا النظر عن فكرة الرحيل.. وهزّه الحارس الواقف إلى جانبه..

- من هؤلاء يا سيدي؟ هل هم أغراب تسلّلوا إلينا ثم غادرونا؟ أم هم أنواع من الحيوانات البحرية لها أربعة أطراف ورأس ضخمة.. وظهر سميك محدّب بأسطوانتين متشابهتين؟ ماذا يجري يا سيدي؟.

- أغلق الشبكة سريعاً.. لا بدّ أنها حيوانات بحرية بأشكال لم نألفها.. تسلّلت عند فتح الشبكة في المرّة السابقة.. ولم تظهر لنا.. حتى لا نصطادها.. تعلم أن البحر يعجّ بالأشكال الغريبة.. لا تذكر ذلك لأحد حتى لا نثير ذعر الناس..

- وهؤلاء الذين شاهدوهم؟..

- ستضيّع عليهن ما شاهدوه، ونعتبره أوهاماً.. سينسون ذلك بسرعة..

- أرجو أن يأخذوا الأمر دون اهتمام..

علقت امرأة:

- أرأيتِ ما حدث يا ابنتي؟ تلك الأشكال الغريبة السابحة.. يا إلهي..

- كان تابوته يتحرك بعيداً.. وقلبي يكاد ينفلت من صدري..

- آه يا أمي.. حتى ملائكة البحر رافقتك في رحلتك الأبدية..

- ملائكة البحر؟ ربما.. هذا لم يحدثنا عنه أحد من قبل..

- الناس يتساءلون يا سيدي؟..

- ونحن سنضيع عليهم تساؤلاتهم.. سينسون بسرعة لا تقلق..



- ٧ -

وقذفت التيارات عبد المنعم وكولا وبيتر ويوسف الكنعاني إلى الأعماق.. ورغم محاولات عبد المنعم أن تظل يد كولا في يده، فلقد أبعدتها التيارات عنه.. وبذل جهوداً مضنية حتى لا تبتعد عن نظره.. ونفذ بيتر طلب سيده منه بالاهتمام بالشيخ يوسف، ومتابعة حركته مع التيارات التي بدأت تخف شيئاً فشيئاً وهم ينحدرون نحو الأسفل.. حيث بدأت تظهر أشكال غريبة من أحياء المحيط..

عاد عبد المنعم يمسك يد كولا من جديد، وقد لاحظ أنها لا تحرك يديها ولا رجليها والتيارات تدفعها.. شعر أن شيئاً غريباً أصابها، ربما من دوارات التيارات التي لفتهم جميعاً بما يشبه دوّامة سريعة، دوّختهم..

كان معتاداً على مثل هذه الدوارات، رغم ثقل الدوارات التي اجتازها الآن، ولكن كولا لم تكن معتادة، وكذلك والدها.. رفع رأسه يبحث عن الشيخ يوسف، فرآه وبيتر إلى جانبه، لا يتحرّك أيضاً..

خاف أن تكون التيارات قد أثرت على صحته، وهو الرجل المتقدم في السن.. ثم قفز إلى ذهنه خاطر أرعبه أمن الممكن أن يجتاز يوسف وابنته كولا هذا الكم الهائل من الزمن، إلى عصر تفصلهما عنه فعلياً نحو (٣٠٠٠) سنة؟

أن يعيشا مع آخرين في مدينة غريبة تحت أرض جزيرة تحضن مختلف السحنات البشرية ومن أزمنة مختلفة، دون أن يبدو على الجميع أن الزمن يمر، وهم خليط عجيب من عصور متغايرة.. هذا أمر مدهش، ولكنه حقيقي، أما الخروج من دائرته إلى زمن واقعي مختلف فهذا أمر لم يشهده أحد من قبل.. شدّ كولا إليه.. كانت شبه غائبة عن الوعي، ولولا الفقاعات التي تخرج من أسطوانتي الأكسجين المشدودتين على ظهرها، لأصابه الذعر.. سبح يشدّها إليه ويشير إلى بيتر أن يقترب منه.. وهو يسحب الشيخ الكنعاني..

كانت الفقاعات تخرج من لباس يوسف أيضاً، ولكنها كانت فقاعات قليلة، وقد بدا جسده هامداً بلا حركة، إذن يجب أن يصعد بكولا ويوسف إلى سطح المياه.. قبل أن يحدث شيء خطير لهما.. ودون أن يدري عبد المنعم ما يختلج في نفس كولا.. وما يختلج في نفس والدها من أحاسيس أشار لبيتر أن يبدأ في الاندفاع إلى السطح مع الصبية والشيخ..

«آه.. أشعر أن شيئاً ينسحب مني.. وأنا أستعيد طفولتي في تلك المدينة الجميلة البعيدة، ثم كيف اصطحبني أبي نتيجة لإلحاحي المستمر معه في رحلة طويلة نحو العالم الجديد، حيث شدتنا التيارات إلى تلك المدينة الغريبة لنقابل أناساً من زمن آخر، ويتدفق علينا أناس غيرهم من أزمنة بعد زمننا.. آه لم أكن أشعر بطعم الحياة حتى قابلته، ذلك البحار المتمرّس الذي اعتقدته رخواً ضعيفاً، فإذا به يحمل من القوة قوة عشرة رجال، وله قلب ممتلئ بالحب والمشاعر.. آه.. أشعر أنني بلا حول ولا قوّة يا عبدو.. لا أستطيع أن أحادثك وألمسك.. أنا كمن فقد الحسّ، أشعر أن روحي تنسلخ من جسدي.. آه يا حبيبي.. كأن ما حدث بيننا أشبه بحلم خرافي لا يصدّق.. أبي.. أنت تتعذب أيضاً.. آه.. لِمَ لم أشفق على سنّك المتقدّم وأقنعتك بالقيام بهذه الرحلة الخرافَية.. آه..».

«ابنتي كولا.. يبدو أن لباس الغوص الذي ارتديته سيصبح كفني لا قدرة لي على مقاومة هذه القُوى الغريبة.. آه..».

اندفع عبد المنعم وبيتر وهما يسحبان كولا ووالدها نحو الأعلى.. عبر تيارات بحرية قوية، وأشكال غريبة من أحياء المحيط تسبح حولهم.. واستعرض عبد المنعم، وهو يشد يد كولا الهامدة إليه ما جرى له في تلك المدينة الغريبة منذ أن دفعته التيارات وفي زورقه ضمن أنفاقها..

ثم كيف قابل كولا وأحبّها وأحبته، وما جرى له من أحداث متسارعة، حتى اللحظة التي قفزوا فيها وهم الأربعة إلى المحيط خارجين مع التوابيت بعيداً عن الشبكة التي وضعها أحمد المالقي لمنع سكان المدينة من محاولات الخروج منها..

كانوا يندفعون نحو الأعلى، وقد بدا لعبد المنعم أن سطح المحيط أبعد شيء، في الكون، وربما لن يصل إليه إلاّ بعد زمن طويل..

كان الوقت يمر بسرعة وعبد المنعم يزداد شعوره بالخوف على كولا.. التي تناقصت الفقاعات المنطلقة من لباس الغوص.. في حين كادت تنعدم من لباس والدها الشيخ يوسف الكنعاني.. يا الله ما أعمق المحيط، إنه يحاول أن يصل إلى السطح وخوفه يزداد على حبيبته.. معقول أن أخسرك بهذه السرعة يا كولا..؟

هل هو خارج الزمن يراوح مكانه، وهو يعتقد أنه في سبيله للصعود إلى السطح؟ كيف نفذ إلى مدينة تتناقض فيها الأزمنة، وأراد الخروج منها وهو يعتقد أنه سينجح؟ تساؤلات كثيرة متعبة أرهقته.. وهو يسبح جارّاً بحرص ومحبة جسم كولا الهامد محاولاً إنقاذها..

«يا إلهي أعنّي لأنجو بها.. أعلم أن والدها في حكم الميت،

ولكن أرجوك يا رب ساعدني في إنقاذها.. آه من هذه الأعماق الهائلة، كأنها أطول من عمق الكون، ألا سبيل للخروج منها.. تشجّع يا بيتر يجب أن تصل السطح ونحاول إنقاذهما.. رغم يأسنا القاتل..».

«آه يا عبدو.. أشعر أنني أطوف حولك، ألامسك بشفاف قلبي الهائم بك، أنا أنسلخ عن جسمي، وقد لا أعود إليه.. أهو القدر الذي أرادني أن أموت بهذه الطريقة؟.. قلبي عليك يا حبيبي، أرى لهفتك وخوفك من أن لا تلحق بي حيّة.. أشعر أنني أنسحب من جسدي يا عبدو.. ليتني أبقى معك..».

كأنه زمن متوقف بالنسبة لعبد المنعم، فلا أثر لسطح المحيط، وهم يرتفعون ويرتفعون، وأشكال الحيوانات الغريبة تتخايل أمامهم.. أسماك ضخمة ملونة.. وبعضها يكشّر عن أنيابه.. وبعضها صغير مفلطح أو شوكي.. وكائنات دقيقة تتحرك جماعات كسحب متجمعة..

وتوقفت الفقاعات من جسم يوسف الكنعاني، كان الرجل قد فارق الحياة وبيتر يسحب جسده فقط، أما كولا، فكانت الفقاعات تقل بالتدريج وعبد المنعم يكاد قلبه يتوقف من الخوف.. ولا أثر لسطح المحيط كأن ذلك السطح ليس موجوداً أبداً..

- بعد هذه السنوات يا سعد.. ما زلت تتذكر عبد المنعم..

- كان صديق عمري يا عايدة، رغم أننا بذلنا جهوداً لدى السلطات الأمريكية والمكسيكية والكوبيّة في البحث عن أثر له طوال ثلاثة أشهر، وبعون ديلاتوري فأنا ما زلت أشعر أنه على قيد الحياة وقد يظهر فجأة..

- إلى هذه الدرجة يا سعد..؟ كم أشعر بالاعتزاز والإكبار لك يا حبيبي..



«الخاتمة»

وتمر السنون ويكبر سعد.. وتصله رسالة غريبة ليخرج إلى المرفأ ويستقبل أحد أصدقائه القدامى، دون أن تسميه الرسالة التي وصلت إليه على الفاكس من بلد بعيد.. وخرج مع عايدة وبعض أولاده وأحفاده.. لاستقبال الصديق الغامض ورأى رجلاً على ظهر باخرة، بلحية بيضاء يلوّح له بيده.. ولم يصدق نفسه وقلبه يخفق بسرعة.. إنه عبد المنعم صديق عمره.. كيف ضاعت كل هذه السنوات؟ وأين كان؟.. أجهش الاثنان بالبكاء.. كان يبدو عليه التعب الشديد.. وهو يرمق سعداً بحنان.. قبل أن يفتح الحديث.. ويحكي حكايته الغريبة التي لا تصدق..





• **أسست** عام ١٩٥٧م.

• **رسالتها:**

- تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل أفضل.
- كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار.
- تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
- مدّ الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي.
- احترام حقوق الملكية الفكرية، والدعوة إلى احترامها.

• **منهاجها:**

- تنطلق من التراث جذوراً تؤسس عليها، وتبني فوقها دون أن تقف عندها، وتطوف حولها.
- تختار منشوراتها بمعايير الإبداع، والعلم، والحاجة، والمستقبل، وتنبذ التقليد والتكرار وما فات أوانه.
- تعتني بثقافة الكبار، كما تعتني بثقافة أطفالهم.
- تخضع جميع أعمالها لتنقيح علمي وتربوي ولغوي وفق دليل ومنهج خاص بها.
- تعدّ خططها وبرامجها للنشر، وتعلن عنها: شهرياً، وفصلياً، وسنوياً، ولآماد أطول.
- تستعين بنخبة من المفكرين إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير، والأبحاث، والترجمة.

• **خدماتها ونشاطاتها:**

- بنك القارئ النهم (الأول من نوعه في الوطن العربي)
- جائزة دار الفكر للإبداع والنقد الأدبي
- ريادة في مجال النشر الألكتروني
- أول موقع متحدد بالعربية لناشرٍ عربيٍ على الإنترنت:

www. Fikr. Com

-إسهام فعّال في موقع (فرات) لتجارة الكتب والبرامج الألكترونية:

www. Furat. Com

-خدمة المستفتي بإشرافنا على موقع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي:

www.bouti. Com

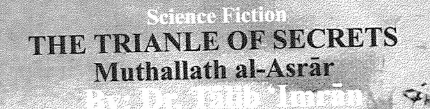
- إشراف مباشر على موقع الدكتور وهبة الزحيلي:

www. Zuhayli. Com

• **منشوراتها:** تجاوزت حتى عام ٢٠٠١ (١٥٠٠) عنواناً، تغطي سائر فروع المعرفة.

دار الفكر
للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق - سورية - ص.ب: ٩٦٢
هاتف: ٢٢١١١٦٦ -فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com



سلسلة قصص وروايات شيقة، بقلم أحد أهم رواد الخيال العلمي العرب، الدكتور طالب عمران، تأخذ القارئ إلى عوالم، يمتزج فيها الواقع بالخيال، والعلم بالقوى الخفيّة للإنسان، والمعقول بغير المألوف؛ وذلك لاستخلاص فوائد علميّة وأدبيّة وتربوية، عبر أحداث مثيرة ولغة ممتعة وحبكة ذكيَّة، تدفع القارئ إلى التفكير والتحليق مع الكاتب.

والمؤلف ينطلق في بناء قصصه ورواياته العلمية الخياليّة على أسس واقعيّة لها علاقة بالمكان، ومع ظواهر مدهشة في حياتنا يفسِّرها العلم، وتوقعات مبنيّة على المنطق العلمي لمستقبل الإنسان على هذا الكوكب.. فيجعل كل ذلك منها مادة قيمة، تعود بالنفع والمتعة على القارئ..

www.furat.com

Bibliotheca Alexandrina
0606440

ISBN 1-59239-196-6
9 781592 391967